حذاء سيلفانا

هدى توفيق

مجموعة قصصية

الكتبي

حذاء سيلفانا

مجموعة قصصية

هدى توفيق

حذاء سيلفانا

مجموعة قصصية

هدى توفيق

الناشر : دار الكتبي للنشر والتوزيع والمطبوعات

العنوان : 5 شارع الجمهورية – وسط البلد – القاهرة ج. م .ع

تليفـون : 0223956750

محمول : 01227245648

بريد إلكتروني : alkotby11@yahoo.com

الغلاف : هند وهدان

التصميم الداخلي : محمد عبد المعز

رقم الإيـداع : 2017 / 1679

الترقيم الدولي : 978-977-5298-38-6

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى 2017

من ملايين السنين،

كان وطني عبارة عن ثلاثة ألوان:

أزرق فاتح، وأزرق غامق، وأصفر..

سماء، وبحر، وصحراء

(حكاية بلدي)

حلمى التونى

حذاء سيلفانا

ملامح الوطن واحدة

كانت الفرحة والأمـل تغمران الجميع بسبب الحدث التاريخـي يـوم 26/ 5/ 2014، بالذهـاب إلـى مقـار الانتخابات الرئاسـية، بعد توالي سبعة رؤسـاء على حكم مصر خلال هذه الفترة العسـيرة من عمر الوطن بعد تنحي الرئيـس السـابق فـي 11/ 2/ 2011 عقـب ثـورة ينايـر 25/ 1/ 2011، ومـن فـرط الحماسـة بيـن زملائـي وزميلاتي فـي العمـل، أصدرت أبلـة آمال- وكيل شـئون العامليـن فـي إدارة 6 أكتوبـر التعليميـة- قـرارًا حاسـمًا بتقسـيمنا إلى مجموعات تذهب وتأتي حتى لا يتأثر سـير العمل الوظيفـي، وكان من حظي الجيـد أنني كنت واحدة من المجموعـة الأولى مـع صديقتيـن أخريين، وابتسـمنا ثلاثتنا زهوًا وفرحًا لاختيار الرئيسة لنا أولًا؛ لأننا سنذهب مبكرًا قبـل الزحـام، تقريبًا عقب فتـح لجـان الانتخابات، التي هي في أماكـن متفرقة في مدارس 6 أكتوبر، وشـملنا إحسـاس غريب وجديد بتلك المسـئولية، وأهمية صوتي

الانتخابي، فأنا- صراحة- لم أعش تلك التجربة من قبل، فهذه المرة الأولى التي أحظى فيها بالذهاب إلى الانتخابات، ومن كثرة ما مر على وطني من انتخابات لا يعنيني الأمر، وأضحك وأقول بتفكه وسخرية: يا عم دي الحكومة... والبلد بلدهم... والكراسي لحبايبهم وحبايب حبايبهم... وبينما نستعد بتلهف للذهاب، وكأننا ذاهبون إلى حفل أو فرح، أشارت إليَّ الرئيسة بغمزة من عينها اليمنى مع إصبعها السبابة بالذهاب والنفي، أي أنا بالذات لا أعود مرة أخرى إلى العمل بعد أن أدلي بصوتي الانتخابي؛ رأفة بحالي في تعثر السير ومشقته لعرج يلازمني في ساقي اليسري على إثر حادث مأساوي تعرضت له منذ عامين.

وفي طريق عودتي من الحي السادس، حيث كانت لجنتي الانتخابية في مدرسة المستقبل للتعليم الأساسي، وما زال شعور الزهو والفرحة يملأني، أشرت إلى السيارة الكبود ذات الصندوق البشري من الخلف المرفوع بسلم حديدي صغير عالٍ للصعود والهبوط منه وإليه، ومن

الأمام سائق وراكبان لا غير، ومع الأسف تتواطأ الحكومة مع شـرطة المرور لمضايقتهم بشتى الطرق، لحساب ناس آخرين، يريـدون أن يسـتحوذوا على الطريق فـي المدينة، وهؤلاء السائقون أغلبهم من محافظة الفيوم، أتوا منذ أكثر من 20 عامًـا للعمـل والعيش، وقتمـا كانت هـذه المدينة مجـرد صحراء، ورمـال لا معالم لهـا، وذلك قبـل أن تباع هذه الرمـال ذهبًا الآن بأغلـى الأثمان. سـيرًا على الأقدام ذهبـت إلـى موقـف تلـك السـيارات، بعـد أن مللـت من الوقوف أمام اللجنة الانتخابية، التي أقام بها الجيش لأكثر من 200 متر قبل أن تصل إلى المدرسة، متاريس حديدية، وكان الجنود منتشرين في كل مكان.

أشـرت إلى سـائق أن يفتح لي بـاب المقعـد الأمامي؛ لأنني لا أسـتطيع الصعـود داخـل الصنـدوق البشـري الخلفـي، رفـض بشـدة، فذهبت إلى آخـر، ثم إلـى ثالث، وكانـوا يرفضـون ويقابلون طلبي بـلا مبـالاة، دون مراعاة لعرجي وعكازي الذي يصاحبني، حتى لمحني سـائق ابن حـلال، وهرع مسـرعًا متسـائلًا: مـا لك يـا أبلـه... تحبي

أوصلـك؟ قلـت لـه ضجـرًا: شـكرًا، وصمـت والغضب يملأني.

ودون انتظار لإجابة ذهب على الفور إلى سـائق شاب وأمره بعد رفضـه الأول وألح فـي طلبه ممزوجًا بالشـتائم المصريـة المعهـودة بيـن عامة الشـعب، ثـم فتح الشـاب الأسـمر الجميل الطلعة باب السيارة، ودون إرادة ظللت أتأمـل ملامح وجهـه الشـديدة السـمرة بعينين سـوداوين سـوادًا لامعًا غائرًا في حزن دفين لا أعـرف (من أين أتاه)، وشعره أسـود ناعم ومفلفل، ولامع من جيل كثيف أضفى على ملامحه غـزارة وعمقًا لشـخصه الذي لفـت انتباهي جدًّا، وقلت مباشرة بعد أن جلسـت وارتحت وأخبرته ألا يُجلِس أحدًا إلى جانبي وسأدفع الأجرة كاملة:

ـ إذن لمـاذا ترفـض أن أركـب إلـى جانبـك؟ ألا ترى عرجي وعـكازي أيها الشـاب المصري الجدع... ألسـت مصريًّا جدعًا... قل لي؟

نظر إليَّ نظرة صارمة متبرمًا من عتابـي وتهكمي، وقاد السـيارة صامتًا صمـت القهـر، لكني لم أسـكت، وجاءني

تحدٍّ داخلي أن أفتت هذا الحزن الذي يحاصر هذا الشاب الجميل لينشطر إلى كلمات وفضفضة لا ريب فيها إثارة ما جاءني شعور بذلك.

فقلت وأنا أبتسم: هل ذهبت إلى الانتخابات؟ وأكملت دون أن أنتظر ردًّا منه:

ـ بالتأكيد انتخبت المشير عبد الفتاح السيسي مثلنا جميعًا. لم يرد بغير نظرته الصارمة هذه، فقلت تمللاً:

– طيب على راحتك.

وفجأة ملأ دهشتي بنبرة هادئة وصادمة قائلاً:

– أنا لست مصريًّا يا أستاذة... أنا من ليبيا

فعاجلته قولاً:

– لكن لهجتك مصرية جدًّا، وأيضًا ملامحك مصرية... نعم والله مصرية بلا شك... هذا غير معقول، واستطرد يقول بنبرة مهزومة وحزينة:

– نعم أنا هنا من بعد ثورة يناير 2011؛ لهذا لساني اتعود على اللهجة المصرية.

قلت وصوتي قد انخفض وتسـربت إليَّ مشاعر طاغية بالانكسار:

- لك حق.. لا تذهب إلي ليبيا، ربما يقتلونك.

فرد بحـدة صارخًا مـن حمل ثقيـل جاثم علـى صدره وقلب ممزق:

- لكني أريـد الذهاب إلـى أخي... أريـد أن أعود إلى عملي فـي طرابلـس، ألا تعرفين أني متعلـم وحاصل على شـهادة جامعيـة، وتاجر سـيارات وقطـع غيـار محترم في بلدي، حيـث امتهنت مهنة أبي رحمة اللـه عليه... بينما أنا عندكم سائق حقير على سيارة كبود وضيعة... أهذا عدل؟ أهذا الربيع العربي؟

قلت بتعاطف حقيقي: اهدأ... ما اسمك؟

- محمـد... أعتـذر يـا أسـتاذة... أيـن سـكنك حتـى أوصلك إليه لو سمحت؟

- شـكرًا يا محمد... أنا معك لآخر الخط فسكني في الحي العاشـر... لا تقلق... أرجوك لا تعـود يا محمد إلى ليبيا الآن... ميليشيات الإخوان سوف تقتلك لا مفر.

وقال ساخرًا:

– لا هم ليسوا إخوانًا مسلمين، إنهم جميعًا مسلمون عاديون شيعة يقتلون سُنة والعكس.

– يا ربي مثلما يحدث في العراق... ولا يهمك ربما يجمع الشمل على يد اللواء حفتر فرد سريعًا وبقوة وبثقة العارف والمدرك لأغوار الأمور الشائكة فعلًا:

– لن يفعل شيئًا، لا يوجد جيش الآن، بعد أن تفكك وتناحر على يد اللعنة حلف الناتو بعد الثورة والقتل البشع للزعيم الليبي السابق معمر القذافي.

قلت بيأس: وكيف إذن تُدار الأمور يا محمد؟

– هناك محاولات للم الشمل، والاتحاد، من خلال قبائل عديدة، تتولى كل قبيلة نحو شهر القيادة وتوحيد الجبهة الشعبية مع ما تبقى من الجيش.

– إن شاء الله قريبًا... استبشر خيرًا يا محمد.

وقال بإصرار وعزيمة صلبة:

- لـن يتغير شـيء، لن يفعـل أي أحد شـيئًا مطلقًـا، أنا أجزم لك قـولًا وصدقًا، أنا أعيش في محافظـة الفيوم، في قرية الغرق التابعة لمركز إطسا مع أمي وأختي الصغيرة في شـقة متواضعـة، ورديئـة، مثـل عملـي هنـا؛ لارتفـاع الإيجـارات فـي مدينـة الفيـوم والمراكـز التابعـة لهـا، أنا وأسـرتي تركنا منزلنـا الكبير، وأعمالنـا المهمـة وتجارتنا وثرواتنا.. هل يصلـح هذا يا صانع الربيـع العربي؟ وأقول لك مثالاً أصـدق تطبيق لمـا أحكيه لك.. محافظـة الفيوم تلك، تعدادها لنقل مليوني مصري تقريبًا، وهو ربما يعادل عدد سـكان ليبيـا، لكـن الاختـلاف المميـت أن فـي ليبيا مليونـي قطعـة سـلاح، الطفـل لا يتجاوز عشـر سـنوات، ويحمل السلاح، بل أكثر من نوع.

وبعـد يأس تسـلل إلـى جوارحنا صمتنـا حزنًـا وقهرًا، حتى يعود محمد بحنين قاتل إلى الحديث عن أخيه الكبير الذي ما زال في طرابلس، والقلق والحيرة تراوغان كغبشة ضوء نهار يحاول البزوغ بأي حيلة، وقال:

- لكني خائف على أخي وأسرته.

فقلت تكلفًا: إذن دعه يأتي إلى مصر.

فقال متوترًا: لا يصلح أن يأتي، هو متزوج ولديه أسرة وعمل، وكيف يأتي؟ وماذا يعمل؟ والله الموت أرحم من هذه الغربة والفقر والبؤس الذي بتنا فيه.

وقلت مجاملة ولم يعد للكلام أي مغزى لكلينا، والمقت والغم ملآ روحي وقد اقتربت من مسكني:

- كم عمرك؟

- 25عامًا؟

- وأخوك؟

- 30 عامًا.

ألحَّ أن يوصلني إلى شقتي، لكني رفضت وشكرته كثيرًا، وأعطيته الأجرة التي نسيت دفعها بعد إصرار مني وقلت له بابتسامة فاترة:

- ربنا معك يا محمد... لكن تذكر: مصري ليبي الملامح واحدة.

أيوب المصري

جاءني اتصال هاتفي كالمعتاد من أستاذي في مدرسة الصفا الإعدادية بنات، وهي المدرسة نفسها التي أعمل فيها الآن في مدينة بني سويف، وهي من أشهر المدارس النموذجية، وأنا الآن معلم أول على الدرجة الثانية، في حين أن أستاذي عمره الآن يناهز 68 عامًا، إلا أنه ما زال يذكرني ولا ينسى قط فعلتي الشنعاء من وجهة نظره ويداعبني بضحك: كيف حال الفنانة الموهوبة في رسم الخرائط التي نقضت العهد ودخلت قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب دون رغبتي؟ وكل مرة أعتذر إليه بشدة، وأعلل هذا أن أبويَّ هما اللذان أجبراني على دخول هذا القسم لتفوقي فيه، مثل تفوقي في مادة الدراسات الاجتماعية، وخاصة الجغرافيا... أرجوك سامحني أستاذي.

ـ ولكن ألا ترين أنها صدفة قدرية أن أدرس لك أيضًا في المرحلة الثانوية.

يومها صرخ فيَّ أستاذي ضاحكًا ومهللاً:

ـ هذا القدر يثبت أنك لا بـد أن تكوني تلميذتي النجيبة الموهوبـة فـي رسـم أصعـب الخرائـط بشـكل مضبـوط ومتناسـق وواضح ودقيق إلى حد ما، دون قياسات، ودون أن تستعيني بالورق الشفاف لطباعتها كما تفعل زميلاتك.

– نعـم أسـتاذي بمجـرد النظـر أحسـب المسـافات والأميال.

– إنه حس بديهـي، وأصابع سـحرية، وموهبة من عند الرب.

أضحك بشدة والحمرة تكسـو وجنتيَّ خجلًا وقد كان يلاحقني بالإشادة أمام زميلاتي وزملائه في العمل.

وقلت بانتباه: هل تذكر أستاذي كيف رسمت إيطاليا؟

قال مبتسمًا: إيطاليا أشبه بحذاء برقبة على الخريطة.

ثم حاولـت تجاهـل الأمر حتـى لا أذكره ثانيـة بفعلتي الإجرامية، ويعود إليّ إيلامي وتعنيفي وقلت: هل سمعت أستاذي عن حادثة مدرسة الشـعب الإعدادية، أنا شاهدتها

على النت في فيديو انتشر على المواقع، يصور طلابًا نزعوا ملابس مدرسهم، وحبسوه في الفصل بعد ربطه بحبال في كرسيه، وأحضروا أصدقاءهم من الفصول الأخرى ليضحكوا من مشهده.

رد أستاذي سريعًا سخطًا وغضبًا:

ـ الدروس الخصوصية يا ابنتي هي السبب، جعلت من المدرسين أراجوزات من أجل المال بالخضوع لرغبات الأهالي، وطيش وتفاهة الأولاد والبنات من أجل المال، الله يلعن دي وزارة ودي حكومة ودي عيال... لا تربية، ولا أخلاق، ولا علم... كان يقدر ولد أو بنت أن يفعل هذا وأنا مدير المدرسة... قولي يا سلمى هل كان يستطيع... قولي...

عاجلته بنبرة هادئة وباردة:

ـ خلاص أستاذي... لا تغضب، أنا أحكي للتفكه أرجوك... المهم كيف حالك وحال البنتين الحلوتين والأحفاد (فقد كانتا صديقتيَّ في المدرسة الثانوية).

وعاد إلى هدوئه قهرًا وتمللاً من عـدم جدوى الكلام، وتذكر وتذكرت أنه صائـم، فقلت على الفـور لإنقاذنا من السأم والإحباط الذي داهمنا:

- وأخبـار الصيـام إيه أسـتاذي، كل سـنة وأنـت طيب وصائم دائمًا مع حبيبتك العدرا.

- هل تعرفين سـلمى مـا قصة صيـام العـدرا؟ فأجاب دون انتظار جواب مني.

- يحكى أن السيد المسيح أمر تلاميذه، ومنهم القديس تومـا الرسـول، بالاعتنـاء بالعـدرا المباركـة... فـي أثنـاء غيابه... حتـى وافتها المنية وصعدت روحهـا الطاهرة إلى السـماء، وكان القديـس دائم السـفر والترحال إلـى البلاد الأخـرى للتبشـير بالدين المسـيحي ونشـره، وفـي إحدى سـفرياته الطويلة، رأى جسـد أمنا العدرا والملائكة تصعد به إلى السماء، وعندما عاد سـأل عن السيدة مريم فأخبروه أنها توفيت، وهي الآن فـي قبرها الكريـم، فقال لا أصدق إلا حين أراه بعينـيَّ، وذهبوا إلى القبر، ولـم يجدوا الكفن في مكانـه المفترض، فقـال مبتهجًا: لقد صدقـت نبوءتي،

فقد رأى جسدها وروحها تصعد إلى السماء مع الملائكة، فقالـوا: لا نصدقـك حتـى نـرى شـاهدًا علـى هـذا القول الإعجازي، فاقترح عليهـم أن يصوموا ويطلبـوا من الرب أن يريهم كما رآه بشخصه، واتفقوا على تحديد وقت حتى يحقق لهم الرب تلك الرؤية الإلهية المقدسـة للعدرا مريم الطاهـرة... وقـد كان مـا كان... وأرسـل إليهـم شـاهدًا سماويًّا بظهور أمنا أم النور وشـاهدوها تصعد إلى السماء المباركة، فكان صيـام العدرا في ذاك الوقـت بالذات نحو خمسـة عشـر يومًا، في الأول من مسرى (أغسـطس) إلى يوم (16) من مسرى من كل عام.

رحلة إلى مسقط رأسي

وأنـا أصعـد الـدرج إلـى منـزل الطفولـة، والشـباب والشقاوة، بعد مضي سـنوات العراك مع الحياة، والانتقال إلى محافظة القاهرة مع زوجي حيث عمله، وإن كان مثلي مـن نفـس المحافظـة؛ لذلـك فضلت أمـي رفـع الدعوى القضائية فـي محكمة بني سـويف حرصًا منهـا على حفظ حقي قانونيًّا في الشقة ورعاية الطفلين؛ لذا عدت مرة ثانية إلـى مسـقط رأسـي لحضـور جلسـة محكمـة الأسـرة، لاستخراج ورقة الحضانة والولاية التعليمية لطفلي اللذين يمكثان معي الآن بعـد طلاقي.. وقبـل أن أرن جرس باب الشقة في الطابق الثالث، فتحت لي بابتسامتها الوديعة التي أفتقدها وتنساب بينها كل أوجاعي، وتكاد تصرخ روحي: آه يا أمي الغالية، ليتني أعود طفلة فـي حضنك، ولا أفارقه ولا أنمـو وأكبر لتدهسـني أمـور النصيـب والحـظ العاثر الشـديدة الوطأة عليَّ يـا أمي... كيف لـي أن أجتاز دروب تلك الحيـاة الوعـرة... كيـف بالله عليـكِ يا أمـي؟ بربك

عودي بـي جنينًا في أحشـائك. عاجلتني قـولاً بعد حضن طويل وعناق حار جعلني أشـتم رائحة الطهـي الذي تعده في وقت مبكـر بعد أدائها صـلاة الفجر حتـى نتناوله غذاءً شـهيًّا سـريعًا معًا حتى أسـافر إلى محافظة القاهرة لطفلي في وضح النهار معللة هذا بأن (النهار سـترة يا بنتي والليل عتمة وغفلة... ربنا يبعدنا عنها)، ثم قالت بعفوية:

– حضرت في الميعاد كمـا أخبرك المحامي وحضرت الجلسـة طبعًـا... خـلاص... تجاهلـت نبوءتهـا بعتـاب سريع:

– لماذا يا أمي تطفئين نور السلالم.. كدت أقع يا أمي.

وتذكرت الإجابة عن سؤالها:

– لا يا أمي لم أذهب إلـى المحكمة بعـد... جئت من موقـف الميكـرو باص إلـى هنا مباشـرة لأدخـل التواليت وأتبارك برؤيتك قبل أي شيء.

ثرثرت وقالت ببعض العصبية:

– طيب يا بنتي الحقي وقتك.

هرعت بعد الخروج من التواليت إلى الباب، الذي ما زال مفتوحًا، وقبل أن أغادر درج الطابق الثالث التفت أشاهد ابتسامتها الملائكية على وجهها الأبيض البشرة المنحوت بتجاعيد الشيخوخة كالأخاديد محفورة على الوجنتين بانتفاخات كالمخدات تحت جفني عينيها تمرق بنور براق رغم الوهن والضعف البادي على الوجه النوراني، شعرت بوجد وحزن لشيخوخة أمي التي داهمت أفكاري في غمضة عين، واغتمت نفسي رغم فرحتي بلقائها.

إن ظلال هذه الروح التي أعشقها مسها العجز والتآكل، وبالتدريج سيتلاشى هذا النور الوهاج من عينيها، وتحمل روحها العفية خمود مدفأة فارقت الحياة بهجران أحبابها، ولاحقتني الهواجس كالأشباح وأنا أركب التاكسي الأبيض، وتسمرت نظراتي بالدهشة التي لاحظتها في مرآة التاكسي، وتساءلت في رعب صامت كيف ستفارقينني يا أمي؟ هل ستموتين مثل كل الأخريات والآخرين؟ هل يا إلهي ستفعل هذا أيضًا مع أمي؟ وامتعضت وفجأة تجدد شعوري بالاستياء بفكرة

حضرتني باستفسار راقني عن مدى تحقيق أمنيتي تلك، هل أستطيع مثل أجدادي الفراعنة العظام تحنيط جسد أمي، وتخليدها في صندوق زجاجي نائمة مثل الملكات، وأضعه في حجرتها، وكلما اشتقت إليها آتي لأراها وأتحدث إليها، وجسدها ماثل أمامي في زينة وأبهة وعظمة مثل جدتي الفرعونية الفاتنة نفرتيتي أو الأخريات؟ أفقت على نداء يبدو أنه تكرر قائلاً بتأفف:

- هي دي المدرسة اللي فيها المحكمة يا مدام؟

- مدرسة إيه؟ قلتلك المحكمة يا أسطى.. إنت نسيت؟

ضحك وقال بتهكم:

- هو إنت مش من هنا يا مدام؟

واستطرد مفسرًا:

المحكمة اتحرقت في أحداث رابعة العدوية، ونقلوها إلى المدرسة، لغاية ما يكملوا بُنا المبني الجديد... وختم حديثه....

ـ أي خدمة أخرى يا مدام؟ تيجي أحكي لك تاريخ الثورة من 25 يناير في المحافظة؟

قلت تبرمًا وغيظًا من تهكمه اللاذع علي:

لا... شكرًا... الأجرة يا أسطى.

عدت مرة أخرى بعد حوالي ثلاث ساعات، وكالعادة تستشف حضوري وتفتح لي الباب، وكان النور هذه المرة مُضاءً وقلت مبتهجة من خلاص الجلسة.

– ماما... أنا جائعة.. أين الغداء؟

– جاهز حبيبتي... ماذا فعلت؟

– لا شيء.. قمت بعمل إجراءات طويلة حتى وصلت لسيدة منتقبة سألتني أسئلة كثيرة، وأجبت عليها بجرأة وشجاعة.

ـ ألست ابنتك؟ وثقي أنني الفائزة، هذا حقي. ولدقائق معدودة صمتت ولم تعلق وهي تجهز طعام الغداء الشهي وأنا أقف على باب المطبخ آخذ منها الأطباق، ثم قالت بخفة:

– حبيبتي أنا أحضرت لكي كل الحاجات.

– أوك ماما بسرعة.

– أيه حبيبتي الساعة ما زالت قبل 12 ظهرًا. الظهر لم يؤذن بعد.

– لا بد أن أسافر، وأكون في شقتي قبل أن يحضر طفلاي من المدرسة ولا يجداني.

– ألم تعطِ المفتاح لجارتك سميحة؟

– أعطيتها ولكن لا بد أن أسافر الآن.. ها قد أنهيت غدائي.

ـ ولكنك لم تأكلي جيدًا.. سأضع الباقي في علب بلاستيكية لتأكليه مع الطفلين.

– المهم الآن اقرئي الورقة التي دونت فيها أشياءك لأتأكد أني وضعتها كاملة في الحقيبتين.

– أوك ماما.

ضحكت ضحكة طفولية بريئة وقد أدهشتني وهي تمزق الورقة على أرضية الحجرة.

- تمام لم أنسَ وضع شيء.

وضحكت منزعجة:

- أمي أنت ألقيت الورق الممزق على أرضية الحجرة.

قالت باستخفاف ومرح:

- ولا يهمك أنا مَنْ أنظف الحجرة... هو أنت يعني من تكنسين الحجرة بدلًا مني؟ نزلت معي حاملة إحدى الحقيبتين اللتين ملأتهما بخيرات الله... عند الباب الحديدي الكبير للعمارة، أمسكت بي واحتضنتني بقوة وقالت وقد ترقرقت بعض الدموع في عينيها دون أن تنساب على خديها:

- لم أشبع منك يا ابنتي.

صمت برهة وقلت بانكسار وأنا أنظر إلى الأسفل:

وأنا أيضًا يا أمي.

وعندما وصلنا إلى أول الشارع حاملتين الحقيبتين أشارت إلى التاكسي وهي تزعق لي: مع السلامة يا بنتي.. لا تنسي أن تتصلي فور وصولك وتضعي اللحوم والطيور والخضار في الفريزر.

ـ من فضلك لا تنسي يا حبيبتي حتى لا يتلفوا.

في الميكروباص العائد إلى مسكني، ظللت أفكر في مدى قسوتي، وعاتبت نفسي أشد عتب لأني لم أجلس معها، وهاجمتني فكرة جنونية كمن هاجمه نحل يطن ويلسع في عقلي بفكرة طائشة، لا بد أن أعود إليها، وأقبل يديها، وأمكث في أحضانها لليلة كاملة على سريرها كما اعتدنا النوم معًا، واستمر هذا الشعور الثقيل يؤرقني حتى بعد أن وصلت إلى شقتي واتصلت بها أعتذر مرارًا وتكرارًا أنني تركتها سريعًا حتى تعبت من الألم فنمت واستيقظت والشوق والحنين والندم يلازمونني، ملسوعة محمومة (بحمي الندم)، وكان هذا تقريبًا في الساعة العاشرة مساءً، فقررت أن أكتب هذه الكلمات لك يا أمي، بعد أن زاد حنيني وتحول إلى اكتئاب يريدك ويرجوكِ أن تسامحيني يا أمي يا مسقط رأسي.

وطن كان

(سفرني ع أي بلد... واتركني وانساني... بالبحر

ارميني ولا تسأل... ما عندي طريق تاني)

من أغنيه تتر مسلسل سوري

وأنا في العمل الوظيفي الروتيني، موظفة إدارية في شئون الطلبة في مدرسة الحي 11 للتعليم الأساسي الابتدائي بمدينة 6 أكتوبر، أنتظر كراسات الغياب لليوم الدراسي لأفرغه في دفتر اليومية، وخمسة سلوك التي بها أسماء جميع الطلبة والطالبات مقسمة إلى فصول دراسية، أشغل وقتي بتصفح النت على موبايلي لحين إحضار الكراسات من الفصول، بقراءة الأخبار في الساعات الأولى من صباح عادي مثل كل يوم، قال إبراهيم الرقاوي الذي ساعد في تأسيس (مجموعة الرقة تذيح بصمت) وهي مجموعة تعنى بتسجيل تجاوزات تنظيم داعش في المدينة، وتسجل الآن أن عناصر التنظيم مهووسون

بالجنس.. وتابع الرقاوي في تصريح نشـرته شبكه سي إن إن أن بعـض عناصر داعـش لديـه زوجتـان، أو أكثر، ومع ذلـك يحـاول البحـث وإيجـاد عبيـد مـن فتيـات الطائفة الأيزيدية، وأضاف أن الرقة أشـبه بسجن كبير، النساء دون سـن الـ 45 لا يسـمح لهن بمغادرة المدينـة... في الوقت الـذي تـم تسـجيل 270 حالـة زواج قسـري أجبـرت فيه فتيـات علـى الـزواج بعناصـر التنظيـم، فأشـار الناشـط: خسرت حياتي... لا مسـتقبل لي، لا أملك شـيئًا ولا أريد ذلك لي أو لمدينتي، والظروف تدفعني للقيام بذلك... أنا لا أريـد الشـهرة، ونحـن نحـاول إنقـاذ مدينتنـا، خـلال الشـهرين الماضيين قتل 40 شـخصًا على الأقل في الرقة علـى خلفيـة تهم مثـل القتـال بصفـوف الجيش السـوري الحر.

ولكـون الشـخص مثْلـيَّ الجنـس... واتهامـات تقتـل الآخرين بدون منطق أو مبرر.

إن كنت ناشـطًا في مدينة الرقة فإن ذلك سيقودك حتمًا إلى الموت.

المصدر: قناة العالم... 24 فبراير 2015

خبر تال: نزوح 60 ألف مواطن سوري من الحسكة من بطش تنظيم داعش الإرهابي، وتباغتني زميلاتي في العمل أبلة هانم وأبلة أميمة، بعد أن طال صمتي غير المعتاد، وقد تدفقت دماء حارة داخل جسدي، وطفحت على ملامح وجهي امتعاضًا واشمئزازًا فصممتا على إضحاكي بعد أن لاحظتا وجومي وهما تسألانني بمرح:

- ما لك يا بت... وشك أصفر كده ليه... حد ماتلك ولا ايه في النت؟ لم أستطع الرد، فصوتي مخنوق.. لا أستطيع النطق به كمَنْ حطت عليه مصيبة، وفجأة ودون توقع تضع أبلة هانم وأبلة أميمة وهما تمسكان بطرف الطرحة على نصف وجهيهما دون العينين مثلما يفعل بعض السوريات الموجودات في مصر بكثرة، وأبناؤهن مدرجون لدينا في الصفوف تحت بند الوافدين، بصفحة خاصة بهم في السجل الكبير وفي الإحصاء العام لعدد التلاميذ الإجمالي، وتبدآن في تقليدهن: أنا من أدلب.. وتكمل أبلة هانم: أنا من حلب، كيف حالك يا أختي؟

بدك شـيء مني يا أختي؟ فضحكت نصـف ضحكة لعبث القـدر... عـن مـاذا كنـت أقـرأ.. وعـن تمثيـل زميلاتـي لحديثهن، حتى تختم أبلة سهير زميلتي الثالثة في الحجرة هذه المسرحية المتقنة الصنع بمشاهد مسرحية مرتبة دون أي قصد منهـن قائلة بحماسـة وبرطانـة لغوية كمَـنْ يلقي خبرًا صحفيًّا:

- ألا تعلمن؟ أمـس تم تحرير محضـر مطول لحالات تحرش جنسـي في سـطوح المدرسـة بعد اقتحامه وفتحه عنوة بمزلاج حديـدي أحضره أحد ثلاثـة طلاب مصريين في المرحلة الابتدائية وولدان سوريان، وتم ضبط الأولاد متلبسـين، وفصلهم من المدرسة، وإحضار أهالي الطلاب للتحقيق الذي صعدته المديرة إلي الإدارة ومنه إلى مديرية التعليم بالجيزة.

وبحديـث أبلـة سـهير توقـف الضحـك عنـا جميعًـا، وتحول المشـهد إلى دراما سـوداء، حتـى لاحظت وجود بعـض كراسـات الغيـاب، قـد جـاءت فـي أثنـاء الحـوار والإنصات، فبدأت أدونه بكل إخلاص.

وطن صغير

صممت بعد الوفاة المباغتة لزوجي، البقاء في محافظة الجيزة، في شقتي في فيصل، مع ولدي الوحيد سيف، رغم إلحاح أمي على العودة إلى مركز الواسطى بمحافظة بني سويف، لأمكث إلى جانبها، أو الامتثال للعيش في البيت الكبير لعائلة زوجي المتوفى في مركز بوش بمحافظة بني سويف التي لم تلح فقط؛ بل رأته واجبًا مقدسًا العيش وسطهم في شقتي القديمة التي تزوجت فيها في بدء الأمر قبل أن ينتقل زوجي المتوفى للعمل في محافظة الجيزة، وعندما تمردت، ورفضت الخضوع لقانون الزوجة الأرملة لديهم، ثار عم الولد، بل تجرأ وأقام دعوى قضائية لحرماني وابني من الميراث بادعاء أن زوجي المتوفى باع له قبل وفاته كل شيء، المتمثل في نصيبنا في البيت الكبير للأسرة كاملاً، والذي يتقاسمه أخوان آخران، غير ميراثنا في الأرض الزراعية التي علمت

أمي سـرًّا، أن بعضها سـيدخل في كردون المباني، ويرتفع سـعرها ارتفاعًا مذهلاً، وبإصرار وحماسة تولت أمي دون رغبتـي رفع قضيـة أمام عـم ابنـي لاسـترجاع الحقوق لي ولابنـي وهي تصـرخ فـي وجهي: هـذا حق سـيف وليس حقك يـا مجنونة، يـا غبية، وذهبـت بولـدي مرغمة لعمل توكيل عام بالقضايا للمحامي، ومعرفة الإجراءات اللازمة لرفـع القضيـة، وعلـى الرغـم مـن ضيقـي ونفـوري مـن المحاكـم والمحامين والتناحر الذي شـابه عداء شـخصي بيني وبين أسـرة زوجـي المتوفـى، فإنها كانـت فرصة لي للاسـترخاء لليلتين أبيت فيهما في منزل أبـي المتوفى منذ سـنوات فـي حجرتي القديمـة مع أختـيَّ اللتين لـم تعودا إليهـا بعـد زواجهمـا وإن كانتـا حضرتـا للترحيـب بـي ومؤازرتي في هذا الموقف البائس.

كان يومًا شـديد الحـرارة والرطوبة، صمغت جسـدي بسـيل من العرق اللزج أسـفل نهدي وبين فخذي، وأعلى سلسـلة ظهـري وتحـت الإبطيـن، وكـدت أنـزع حجابي وملابسي زهقًا وكمدًا وأنا جالسـة في الميكروباص ذهابًا

إلـى منـزل أمـي لمقابلـة المحامي صبـاح غـد، خاصمني النـوم، رغـم إرهـاق السـفر، ففتحـت (بلكونـة) غرفتـي الفسيحة، التي أخذت الكثير من أوقات اللعب والمرح مع أختـي، وكان بها الكثير مـن التراب العالق على الكراسـي والسـور والأرضيـة، فجاءتني حمى النشـاط بغتـة وقمت بتنظيفهـا وترتيـب الكراكيـب وإلقـاء الزائـد منهـا، واسـتحممت، وارتديت (جلابيـة) صيفية خضـراء قديمة وجدتها في الـدولاب الذي بـه العديد مـن أغراضنا مرتبة ومنمقة تثبـت أن أرواح هـذه الملابـس باقية مهمـا رحلنا عنهـا، وبعـد كل هـذا الإنهـاك البدني أيضًـا مـا زال النوم يخاصمنـي، وملأنـي القلق من يـوم غد هذا وأنا سـأدخل عالمًـا غريبًـا وجديـدًا علـيَّ لأول مرة فـي حياتـي، محام وقضية وعـراك.. مـا هذا الـذي يحـدث لي؟ فقـررت أن أسـتمتع بالجلسـة فـي البلكونـة بعـد نظافتهـا وتألقها عن سـابق عهدها، وأسـفل بيتنا الكبير ظلال شـجرة الكافور العتيقة التي وضـع بذرتها الأولى أبي منذ سـنوات طويلة، وظلالها الوارفة بوريقاتها، التي يسقط بعضها على حواف

البلكونة.. أسعدني رغم عدم اهتمام أحد بها خاصة بعد وفاة والدي، وبدأت أنتعش بجلستي ونسمات مساء الصيف العليلة، غيرت من مزاجي المتعكر وروحي الحائرة إلى حد كبير، وكان الشارع يموج بالمارة، والمحال مفتوحة إلى ساعة متأخرة من الليل، والناس جالسون في جنبات شارعنا الكبير المتفرع إلى عدة حارات يلوكون ألسنتهم بالنميمة، ويحتسون المثلجات، ويقشرون اللب والفول السوداني، يتسلون ويضحكون بتمرد وتحدٍّ عما لاقوه من حرارة النهار ... مع نسمات الليالي الصيفية السمراء. ولأني في الطابق الخامس كنت أراهم أحجامًا صغيرة، ولغطهم لا يصلني إلا أصوات مشوشة ومتلعثمة، فاستكنت في صمت وحزن أتأمل الفراغ، رافعة رأسي إلى السماء أبحث عن النجوم، ولمحت نورًا خافتًا للقمر بعد أن حجب الضباب جزءًا منه، فمللت صمتي والسماء، فاتكأت بيدي على سور البلكونة واضعة رأسي دون هدف، شاردة من يقظة عقلي وجسدي المنهك، حتى التقطت عيناي مشهدًا مثيرًا للتتبع

على بعد أمتار قليلة من شجرة أبي الأصيلة، وقد بدأ المارة والجالسون على المصاطب يقلون ويعودون إلى منازلهم، خاصة بعد غلق المحال الثلاثة الموجودة في شارعنا غير سوبر ماركت العم حليم، الذي يظل مفتوحًا إلى قرب أذان الفجر، رغم أنه مسيحي، دققت النظر وفتحت عيني بعد أن نهضت من الكرسي وأدليت رأسي كالأطفال أنظر بإمعان حتى أيقنت أنه يوجد أكثر من خمس عشرة قطة تقريبًا أغلبها بيضاوات، وقليل منها بيضاوات بنقط سوداء، وقليل مائلة إلى اللون البني، وواحدة فقط سوداء سوادًا أجرب واضحًا من القذارة، وقد ساعدني العمود الكهربائي المضاء إلى جانب الشجرة، ولمبة البلكونة حتى تأكدت أنها منهمكة في تفان حول شيء ما.. بالطبع وليمة متخمة أثارت شهية الجميع فالتفوا حولها، أخذني الفضول بشدة لهذا المنظر العجيب، وطارت الفكرة داخل عقلي بطيش، ونهضت فارتديت روبًا صيفيًّا طويلاً بأكمام وطرحة خفيفة، وتسللت إلى الباب بعد أن تأكدت من نوم أمي وسيف في

حضنها كالعـادة، حتى وجدتنـي أقف وسـط القطط وهي تلتف حول قدميَّ بلا مبالاة تمامًا وظلت منفعلة بحماسـة في التهام أكبر قدر من بقايا أطعمة مختلفة وكثيرة ألقى بها أحـد الجيـران بغباء هكـذا على بعـد أمتار من شـجرة أبي العظيمة، حتى بعـد وقت ليس طويلاً نظـرت إليَّ إحداها، وقد تباطأت في الأكل بيـن نظراتها لي بعينيها الخضراوين اللامعتين كالزجاج، وبين اسـتكمال الطعام حتى اتسـعت حدقتـا عينيهـا ورشـقتني بسـهام التسـاؤل عـن وجـودي وسطهن، بل ترددت في تناول طعامها، وحارت أتأكل أم تهرب أم تبقى مثل الأخريات المسـتغرقات في التهام بقايا الطعـام، والتحدي مع قطتـي أصبح واضحًا حتـى انتبهت بعـض القطـط بعـد الشـبع لوجـود أقـدام غريبة وسـطها، فهرب بعضها فورًا، وبقي البعض الآخر من منطق الجشع والطمع في اسـتمرار تناول الوليمة عـن آخرها كفرصة لا تعوض، في حين تسمرت قطتي وتوقفت عن الطعام نهائيًّا وجلسـت بزاوية قائمـة تنظر إلـيَّ بتحفز فأخفضـت عيني وابتسـمت اسـتغرابًا من موقفهـا المتحدي لي هـذا، دون

القطط الأخرى التي أخذت الأمر ببساطة وهدوء ينم على مدى تعقلها في تناول أمور الحياة، ثم اضطررت أن أغادر مكاني بعد أن لمحني عم حليم البقال، وجاء بالخطوة السريعة منزعجًا ومتسائلاً:

ـ ما لك يا مدام وفاء واقفة عندك ليه، وأيه القطط دي؟ وأزاحها بقدمه بعنف، زاعقًا بصوت عالٍ يسب فيها حتى تفرق الجميع تعسفًا وفزعًا، حتى قطتي العنيدة ذهبت لتبحث عن وطن آخر مع أصدقائها وصديقاتها من قطط الشوارع.

كذبة سمكة نيسان (إبريل) الشهيرة

إبريل شهر الغبار والأكاذيب

(عندما سقطت الأندلس، خرج الصليبيون، ونادوا بالناس: إنه مَنْ أراد النجاة بنفسه، وأهله، وماله، فليذهب إلى الشاطئ، فإن سفنًا كبيرة قدمت من المشرق لتأخذ مَنْ تبقى من المسلمين، وبالفعل صدق المسلمون، وذهبوا جميعًا إلى الشاطئ، وهناك كانت الخديعة؛ حيث الجيش الصليبي كان بانتظارهم يحيط بهم من كل جانب فأعملوا السيوف في رقاب المسلمين، وذبحوا النساء، والرجال والكبار والصغار، وكان ذلك في الأول من نيسان؛ حيث دعيت هذه الخديعة بسمكة نيسان لأنهم كذبوا على المسلمين، واصطادوهم كالسمك، وبعد هذا يليق بنا أن نكذب، وقد امتزجت هذه المعصية بدماء إخواننا وسخرية أعدائنا!).

وبعد أن قرأت هذه المعلومة على صفحتي الشخصية على الفيس بوك؛ حيث أرسلها لي أحد الأصدقاء بمناسبة

حلول يـوم عيد ميـلادي، وبـدون مقدمات صرخـت وأنا جالسـة وسـط زميلاتي فـي العمـل الوظيفي، فـي حجرة شئون الطلبة في مدرسة أسامة بن زيد الحي -10 مدينة 6 أكتوبـر، فكلهن سـيدات؛ ممـا يطـرح بيننا فعـل وقول أي شـيء دون حـرج مـا دام ليـس معنـا الجنـس الآخـر مـن الرجـال، وقلـت مبتسـمة ابتسـامة كبيـرة : يـا أخواتـي العزيزات، اليوم عيد ميلادي.

فردت سـعاد بفرحة: والنهارده كمان بصـارة أبلة نادية الحلوة.

ابتهجت واتجهت بالحديث إلى أبلة نادية: صحيح أبلة نادية معاكي بصارة؟

ضحكـت وردت: هه هـه هه هـل صدقـتِ؟ دي كذبة إبريل.

وشاركتنا أبلة حمدية الحوار بتفكه ومزاح ثقيل.

بمناسـبة أن اليـوم 1/ 4 أي كذبة إبريل... أشـارت لي بسـبابتها أنتِ كذبة كبيرة يا هـد؛ى... يا غبيـة.. وضحكنا

جميعًا وأخرجت همت الأطباق، وعندما رفعت غطاء الحلة، تصاعدت رائحة البصارة فصرخنا جميعًا، وقالت أبلة حمدية: أهلاً أهلاً بكذبة إبريل اللذيذة. وبعد أن انتهت أبلة حمدية من تناول طبق البصارة ومسحت كفيها بفوطة صغيرة تحتفظ بها في درج مكتبها الخاص، بينما نحن منغمسون في الشروع في طبق ثانٍ وثالث مع التعزيزات الفاتحة للشهية من سلطة، وبصل أخضر ممزوج بالليمون والخل والكمون، والمخللات المتنوعة، وقفت أبلة حمدية في وسط الحجرة وقالت بتمثيل متقن:

– يا هدى يا غبية، يا كذبة إبريل إليكِ الآتي: سعاد راضي عبد المولى أحمد جاءها عقد التعاقد من المديرية (مديرية التربية والتعليم)، فابتسمت ابتسامة أمل حقيقية، وشهق الجميع يتساءلن وصرخت فيها: صحيح والله؟ طيب فين والنبي؟ ونظر الجميع مدهوشات حتى قهقهت أبلة حمدية بنوبة ضحك طويلة وقالت: ما هي دي كذبة إبريل يا هدى يا غبية.

تخيل رومانتيكي

اليوم حدث لي شيء جديد وربما عجيب، نادرًا ما يحدث معي في أثناء الانهماك في العمل، أو السير في الشوارع المزدحمة، كان يومًا شاقًا كالمعتاد من الاستيقاظ مبكرًا للذهاب إلى عملي في إدارة 6 أكتوبر التعليمية، ومما زاد من شقائه أنني سأذهب مباشرة بعد العمل لزيارة أختي الكبيرة التي تسكن في محافظة القاهرة في منطقة حدائق القبة لتهنئتها على حضور حفيدها الأول من ابنتها الكبيرة آسر.. يا له من اسم جذاب ومؤثر في نطقه ووجوده بين أسماء أفراد العائلة بأسمائهم الكلاسيكية.. وتبدلت مع موضة الأسماء الجديدة التي تختارها شابات وشباب اليوم، وقد أصبح انتقاء تلك الأسماء مثار جدل ونقاش بين الزوجين وأفراد العائلة، وكالعادة سرت بين زحام المارة الغادين والقادمين وكأنك في سباق دموي مع الحياة لأركب الميكروباص المؤدي إلى رمسيس، ومع الأسف رغم أن هذا يحدث كل يوم، وكل لحظة في الـ

24 ساعة من حساب الزمن التقليدي، ونحن البشر اعتدنا هذا التكرار المقزز، لكني ضبطت نفسي حانقة، ومشمئزة من هذه المفردات التي تبعدني عن خيالاتي المحبوبة والقريبة إلى نفسي داخل عالم خاص بعيد عن أصوات جميع أنواع المركبات والزحام، ولغط البشر والباعة المستمر والمزعج، وعلى سهو من استغراق شعوري بالتقزز امتعضت واحتقرت نفسي وارتفع صوتي يعلو على السائق؛ لتجاهلنا لاحتساء الشاي من غرزة في الموقف، رغم اكتمال عدد الأنفار، ثم تراجعت بعد أن حمل عني المهمة شاب جالس إلى جانبي، وإن كان عقلي هو الذي تراجع وليس تولي الشاب المهمة عني، وهممت أسأل نفسي بهمس: ما بي؟ اسألني أيها القارئ لقصتي أنت أيضًا وشاركني التساؤل، فنادرًا- كما أخبرتك في أول القصة- ما يحدث لي هذا. إذا ضحك القارئ العزيز وقال ما بك يا امرأة؟ إذن أكمل لا مناص من ذلك. أولاً اسمح لي صديقي القارئ العزيز أستأذن هذا الشاب الأنيق والمهذب أن يستبدل مكانه بمكاني لأجلس إلى جوار الشباك لأستنشق بعض الهواء، ربما يرفع عني بعض

حر الصيف الموحش، فقطرات الماء اللزجة تتخلل بوقاحة إبطي وتنساب ما بين فخذي الممتلئتين والملتصقتين تزيدهما التصاقًا وضيقًا يملأ روحي بهذه الجلسة المفروضة على كل امرأة دليل الاحتشام والأدب، وسخرت تبرمًا: حتى الجلسة يفرضونها علينا؟! يا له من مجتمع ذكوري بطريركي ظالم يفرض سيادته وقانونه ليسجن المرأة داخل سجن الرجل المتعسف، الأناني! ألا تتحدث هكذا النساء المختصات بالدفاع عن حقوق المرأة، لا أعرف؟ لست مناضلة.. إنما مجرد امرأة تافهة. المهم.. نعود إلى قصتنا أيها القارئ العزيز، فتلك الأمور بعيدة عن أذهان من مثلنا من السيدات، ابتسم الشاب الوسيم، وبكل ذوق وخلق رفيع قال: اتفضلي يا مدام ولا يهمك.. المهم راحتك. وابتسم بلطف، وهدأت روحي من جراء هذه الابتسامة اللطيفة التي أشعرتني بقوة الأنوثة لديَّ لهذا الشاب الوسيم، بل أعادت لي احترامي لذاتي بعد أن احتقرتها وقتًا طويلاً دون ذنب اقترفته، وفتحت تلك الطاقة الزجاجية على آخرها وقد سار الميكروباص، لتهب عليَّ نسمات منعشة، وبدأت كل الأصوات تبعد عن

مجال ذهني، وأدخل إلى غرفة خيالاتي لأستكمل حواري الداخلي معك أيها القارئ العزيز لأخبرك ما أشعر به الآن، وقد رأيتني على غفلة أرفع نظري إلي السماء، فرأيت كتلاً من السحاب الأبيض تقاربت لتشكل طلة نورانية فاتنة أو ربما لتحصل على دفء أكثر بهذا التجاور بين السحاب الذي تناسق في مساحات توحي بأن يد فنان واسع الحس أجاد رسمها في لوحة لا نهائية للسماء بلونها اللبني والمائل إلى الزرقة الصافية في نواح أخرى، وظللت أتأمل تلك اللوحة الطبيعية وكأنني لم أشاهدها من قبل، وتعجبت لروحي الهائمة برومانتيكية بخزعبلات عقلي الباطن، بل حكمت حكمًا خطيرًا: السحاب أجمل من السماء.. أصدقكم القول يا قرائي الأعزاء، وكيف لم أدرك هذا طول عمري؟ وأنتم أيضًا ألا تدركون هذا معي؟ وتسلل السلام إلى روحي، والهدوء إلى عقلي، وكأنه أصبح كالصفحة البيضاء، واشتعلت جذوة الأحلام والأمنيات وأنا أتابع أشكال السحاب، ولمحت واحدة منها تتمرد بالانفصال عن شقيقتها، وتذهب إلى اتجاه آخر لتشكل جزءًا خاصًّا بها استقلالاً وحرية عن تبعيتها

للكتلة القديمة، وزال امتعاضي، واحتقاري لذاتي، وشعرت أنني أصعد إلى السماء، وأتجول بين السحب البيضاء الرائعة، وأتبختر فرحًا وانبساطًا لأعرف سر طبقات السماوات السبع، وكنت قريبة من رب السماوات والأرض، فترجيته: يا إلهي، ألا ترحمني من القلق والحيرة ونفسي المشتاقة، فأنا الحبيبة العاشقة للأمير الذي يأتيني في المنام وأحلام اليقظة، وأنا في انتظاره ليرفعني على جواده ويركض بي إلى أرض الأحلام، أو إلى السماء عند رفيقاتي من السحاب الأبيض... يا إلهي ألا تفعل لي تلك المعجزة كما كنت تفعلها مع رسلنا وقديسينا لتبرهن على وجودك وأرى حبيبي الأمير؟

وهكذا قرائي الأعزاء انتهت قصة هذا التخيل الرومانتيكي الذي نادرًا ما يحدث لي...

شكرًا.. سواء للقراءة أو الإنصات.

خيال عن وطن مغاير

تثاءب يوسف ممددًا على سريره بثنايا النوم الذي ما زال عالقًا بجفنيه، وأنا أناديه مرارًا:

انهض يا يوسف من فضلك، تأخرنا عن موعدنا للذهاب إلى النادي، يا كسول.. انهض.. انهض.

استند إلى السرير وما زال يغالب النعاس في عينيه وقال بحماسة مفاجئة:

ماما، أين هو القمر؟

قلت: نعم؟! القمر في السماء يا حبيبي.. لما...

كنت هناك مع كائنات غريبة الشكل.

هذا حلم يا يوسف.

وإن كان حلمًا يا أمي.. أريد أن أعيش هناك.

هيا أخبرني.. عن الحلم.

ـ يقظتي المفاجئة أنستني ملامح المكان.. لكني أتذكر تلك الكائنات.

ولا يهمك يا حبيبي، أخبرك أولاً ما القمر.. القمر قرص مستدير يشع نورًا في الليل وسط ظلمات السماء.. كأننا في استاد رياضي كبير واسع جدًّا وفي أعلاه يقف القمر منيرًا وضاحًا كالبدر الجميل.

وأكمل يوسف وقد استعاد وعيه وتشغيل الحواس الخمس من جديد:

ـ ونحن نلف حول مَن؟ القمر أم الشمس؟

ـ نحن نسكن على كوكب الأرض، ومثل كل الكواكب الأخرى نلف حول نجمتنا الأم الشمس.

ـ وكيف يحدث هذا يا أمي؟

صمت فجأة وانتابني جهل جغرافي، وإن كان في الحقيقة موجودًا منذ بداية الحوار بيننا، إلا أن يوسف ضحك عاليًا وقفز من سريره بهمة ونشاط وسحبني من

يديَّ وأوقفني في وسط الحجرة ولف حولي عدة لفات، هكذا صح يا أمي، نحن كوكب الأرض نلف حول الشمس، فأنت مثل الشمس عندي، وسألف حولك. وقهقهت بعدة ضحكات، واحتضنته وقبلته بقوة، ونهرته بلطف قائلة:

ـ امشي يا شقي واستعد.. تأخرت عن ميعاد التدريب في النادي يا ولد. وغادرته والابتسامة لا تفارقني، وهززت رأسي تعجبًا من خيال طفلي الذي لا يتجاوز العاشرة، وخاطبت نفسي بصوت واضح أنظر بإعجاب في أمنية طفلي: والله فكرة رائعة أن نصعد معًا إلى القمر يا يوسف ونسكن هناك بعيدًا عن تلك الأرض المعذبة بناسها البؤساء.. وعدت أبتسم مرة أخرى.

الحلق الأسطوري

حبيبي: لـو كان معي نقـود كثيرة، لأحضرت لك شـيئًا من الذهب، أو حتى من الفضة تضعه في يدك أو في عنقك حتى لا تنسـاني أبدًا، وتظل تتذكرني كلما لامسـتها سهوًا، أو اشـتقت إلى حديـث بيننـا كان عـذب المذاق، واسـع الرؤية مـع أضغـاث الأحـلام والأمنيـات داخـل أرواحنا يا حبيبي الغالي.

حبيبتـي: مـا ذاك الحديـث... يـا حبيبتـي... حـب الأشـخاص ليس بالقيمة المادية، ربما شيء بسيط، وليس غالـي الثمـن... ويبقـي إلـى الأبـد؛ لأنـه ممـن نحـب ونعشق... وأنت وجودك في حياتي بكنوز الدنيا.

حبيبي: لا إطلاقًا... إطلاقًا حبيبي.. هناك فكرة خاصة بي عن اقتناء شـيء ذهبي أو فضـي... لا تظلمني حبيبي.. علـيَّ أولاً أن أحكـي لـك عـن قصتي مـع الحَلَـق الذي يوشوش في أذني..

حبيبتي: أي حلق يوشوش في أذنك هذا... حبيبتي؟

حبيبي: وهذا مغزي فكرة اقتناء الذهب أو الفضة.

حبيبتي: ما هو؟

حبيبي: نعم...أمي من عدة سنوات في يوم عيد ميلادي، ألحت أن نذهب معًا لشراء حلق ذهبي أختاره بذوقي الخاص، دون أي تدخل منها غير دفع ثمنه، وأخذت وعدًا مني ألا أفرط فيه أبدًا، أو أخلعه مهما حدث، وتمر الأيام وأنا على وعدي، حتى أحيانًا تتعثر ظروفي، وتضيق أمور الحياة أمام عيني، فلا أجد سبيل الخلاص إلا ببيع الحلق، فأنساق جرًّا إلى محل الصاغة لكني أتذكر وعد أمي بتحسر وأسمع صوتها يهمس في أذني بالوعد. ومنذ ذاك الوقت لم أعد أجرؤ على التفريط به، مهما ساءت الظروف وأظلمت الدنيا في وجهي، وكلما اشتقت إلى أمي ألامس الحلق الذي بات كالتعويذة تحميني من كل سوء أو شر أتوقعه، وقد تمثل صوت أمي داخلي لا يفارقني، هذه الفكرة الأسطورية أوحت بها إليَّ

أمي العبقرية التي جليتها ببسـاطتها وروحها العفية بالحب والحياة، دون أن تقرأ كتابًـا مثلما قرأ كل العباقرة، أو مثلما كتب من كلمات عـن الحب... أدركت حبيبـي فكرة قيمة اقتناء الذهب والفضة عند أمي، فالذهب والفضة ليسـا في قيمتهما الماديـة، إنما فقط فـي مدى جودتهمـا وقدرتهما على البقـاء أطول فترة ممكنة، وهذا طبعًـا بغض النظر عن قيمة الجواهر الأخرى التى لا نعرفها مطلقًا حبيبي...

أكثر من ممتاز

دخلت الأستاذة خيرية، موجه أول مادة العلوم فصلًا من فصول مدرسة الإعدادية بنات في الحي 11 بمدينة 6 أكتوبر، وكان الفصل ممتازًا جدًّا من ترتيب ونظافة وتنسيق للوسائل التعليمية، وحضور الطالبات والتزامهن الذي لا غبار عليه، بالإضافة إلى كفاءة الأستاذ جودة في الشرح والتحليل، وابتكاره العلمي الممتزج بالمرح وخفة الظل، بابتداعه وسائل تعليمية جديدة وبسيطة الأفكار هادفة المغزى، وانتفخ الأستاذ جودة فخرًا بمدى إعجاب الموجهة، حتى جاءت اللحظة الحاسمة بالتوقيع على دفاتر التحضير وكل المتعلقات التوضيحية وكشاكيل الطالبات بتوقيع منها أكثر من ممتاز... حتى وصلت إلى دفتر ضخم مجلد تجليدًا أسود سميكًا بعنوان (دفتر الزيارات المدرسية لجميع المواد الدراسية)، وكتبت بكل وقاحة بعض الملاحظات الهزيلة، وانتهت مذكرة الزيارة والمتابعة: الفصل ممتاز إلى حد ما، وإن كان يحتاج إلى

بعـض الاهتمام لا أكثـر. اعترض الأسـتاذ جودة فـي أثناء لقائـه معها علـى انفـراد في حجـرة المديـر مع بقيـة فريق المادة، فلـم تعره الأسـتاذة خيرية اهتمامًا، واسـتمرت في اللغـط وتجـاذب الحديث مـع الآخريـن، إلا أن الأسـتاذ جودة سـار وسـألها بحدة: لماذا لم تكتبي أكثر من ممتاز، كما أشدت بذلك من قبل؟

فابتسمت بخبث وقالت بهدوء:

- لا عليك يا أسـتاذ، أنـت فعلاً أكثـر من ممتـاز، ولم أجد أي نقص في فصلك.

قال وما زالت نبرته حادة:

- إذن اكتبـي هـذا أيضًـا فـي دفتـر الزيـارات... لـو سمحت.

رفضت بهدوء أيضًا وقالت بنبرة لينة:

- لا تشـغل بالـك، هـذا أمـر عـادي.. حتـى أحميـك وأحمي نفسي من المساءلة مع لجان المتابعة والفحص...

استطرد وقد استشاط غضبًا قائلاً:

ـ لا، بل أريـد لجنة متابعة لتقييم الفصـل وعملي.. فأنا عن جدارة أكثر من ممتاز.

– إذن أرسل إليهم لكي يفحصوا وراء عملي.

قال بقوة وفجاجة:

– نعم سأرسل إليهم، بل سأقدم فيك شكوى رسمية.

وفعلًا بعدها بأسـبوع أرسـلت الإدارة لجنـة مكونة من ثلاثة أشـخاص للتقييم، وكتبت اللجنة تقريـرًا كاملاً أنهته بعبـارة: الفصـل والمعلـم أكثر مـن ممتـاز. ثم بعـد ذلك بعامين تقريبًا ترك الأستاذ جودة العمل في التربية والتعليم بإيداعه إلى معاش مبكر، وعاد إلى قرينته أشجان في مركز أبي سـليم في محافظة بني سـويف، وعاش مع أسـرته في البيت الكبير من ميراثه مع أخيه، وتقاسـما زراعة أرضهما وتربية البهائم، وأصبحت حياته أكثر من ممتازة.

التدريب على الانتماء

اليـوم تحتشـد وتتزيـن بملامحهـا الدقيقة والمتناسـقة بوجه صغير مسـتدير، وعينيـن ضيقتين متوقدتيـن، وأنف مدبب صغير بشفتين ممصوصتين لفم صغير وجسد نحيل صغير أيضًا رغم عمرها الذي تجاوز الخمسـين.. أستاذتنا الكبيـرة المقـام الأسـتاذة تماضـر، الموجـه العـام لمـادة المسـرح المدرسـي، المشـهورة بالمعلمـة المثالية لثلاث مـرات متوالية على مسـتوى محافظـة بني سـويف؛ حيث يُعقد لقاء جديد في قاعه المسرح العريق في مدرسة النيل الثانويـة، وهـي من أقـدم مـدارس بني سـويف، عـن دور المسـرح في التدريب على الانتماء، وتبدأ الافتتاح بمقولة واعية وحماسية:

- منـذ عشـر سـنوات، كانت هنـاك علاقـة انتمـاء بين الطالب والمـدرس، بين الطالب والأنشـطة الفنية التي من أهمها المسـرح والموسـيقا، حتى حصة التربيـة الرياضية،

واليوم ونحن فـي عـام 2013، أصبح لا يوجـد تقريبًا أي أنشـطة فعالة من تلك الأداءات المهمة نفسيًّا قبل أن تكون بدنية على صحـة الطالب وسـلامته النفسـية والعقلية، بل أعتقـد أنه لـم يعـد يوجـد أي علاقـة انتمـاء بيـن الطالب والمدرس، والمشـكلة ليسـت فقط فـي انحـدار إلى حد غياب تام لتلك الأنشـطة، المشـكلة الحقيقية أمسـت في آليات تلـك العلاقـة ومظاهرها علـى علاقة الانتمـاء بين الطرفين، وبين مدى إشـكالية بذور المواطنـة التي فترت، وأحسـها انتهـت بيـن التلميـذ والمـدرس، بيـن التلميـذ وأسـرته، بين المسـلم والمسـيحي، بين الفرد والمجتمع، بين التلميذ والمسرح والفن عمومًا، حتى الرياضة البدنية، وأخيرًا فـإن علاقتنا بالوطن نفسـه أصبحـت مهترئة، وغير واضحـة، وغيـر شـفافة بالمـرة، دعونـي أسـأل أصدقائي الأعـزاء: مـا حـدث للانتمـاء وعلاقتنـا بـه؟ أيـن مفهـوم المواطنة، ولِمَ رحل عنا؟ عندئذ من الممكن أن نجد إجابة لمحور هذا اللقاء عن علاقة الانتمـاء بين الطالب والفن؟ وفجأة قطع حديثها أحد الحاضرين وقال بنرفزة:

- من فضلك أستاذة تماضر... أرجو عدم الكلام في السياسة، والاحتفاظ بأهداف التدريب.

وترد مباشرة عليه بنفس النرفزة مع بعض السخرية:

- أي سياسة أستاذي، ألم تلمح مثلي- ولو مرة- طالبًا في الصف الثاني أو الثالث الابتدائي في إحدي مدارس العزبة والغمراوي خلف المدرسة يدخن السجائر، ويقفز من السور هروبًا من مدرسته؟ وطرقت على المكتب، وأشارت بكل قوة إلى خارج القاعة: ألم ترَ أستاذي تلك السيدة أم رجب التي تجلس إلى جانب تلك المدرسة التي نحاضر فيها وهي تنصب عربة بيع كشري للتلاميذ، وتضعه في أطباق بلاستيكية ملوثة، وبيدها بدلاً من مغرفة؟ ... وخفت نبرة الحدة والسخرية، وقد اتجهت بنظرها مرورًا سريعًا على الجالسين بعد أن تركت المنصة تمامًا: ألا تعلمون يا حضرات كما أعلم أنها مريضة بفيروس سي، وابنها رجب الكبير مدمن برشام وكُلَّة، يستقيها من عمله كماسح أحذية ومن أصدقاء السوء؟

وعندما سـألته: لمـاذا لا تعمل يـا رجب بدل أمـك وتترك عملك وإدمان البرشام والكُلَّةَّ؟

تضحك أسـتاذة تماضر ضحكات مبتـورة مريرة عندما جاءها الرد منه:

- وإنت ما لك يا أستاذة؟ هي أمك إنتِ ولا أمي؟

أنا الزعيم مصطفى كامل

عندما مررت كعادتي من شـارعي الرئيسي الأباصيري في منطقة بني سـويف الجديدة المعروف والمزدحم بأهم وأشـهر محال الأزيـاء والأحذية علـى مسـتوى مدينة بني سـويف دلفـت منـه إلـى شـارع ضيـق أجتـازه هروبًـا من الازدحـام، وتكـدس السـيارات للذهـاب إلـى عملي في مديرية الكهرباء، شـاهدت ورقة كرتونيـة لافتة للنظر على دكان المكوجي عم مصطفى: انتقل إلى رحمة الله الزعيم الكبيـر مصطفـى كامـل، والعـزاء فـي البلد، وللاسـتعلام ت...... لـم أصـدق عينـي، تسـمرت فـي مكانـي بضـع دقائق، اغتمت روحي على هذا الصباح المريب، وتأوهت هامسـة لنفسـي: يا إلهي، عـم مصطفـى الذي يسـكن إلى جوارنا في شـارع الأباصيري من قبل أن أقطن أنا وأسرتي في هذا الشارع، فقد كان منزل والديه منذ زمن بعيد قبل أن يصبـح الأباصيري مـن أغلى الأماكـن ارتفاعًا فـي الثمن، وكـدت أعـود إلـى منـزل أمـي لأتاكـد مـن الخبـر، لكنـي

تراجعـت، وتذكـرت أنه لم يعـد عنـدي أيام مـن الإجازة العارضة متبقية لي، فارجأت هذا لحين العودة من العمل، فأخبرتني أمي بحزن بصحة الخبر، وأنه توفي متأثرًا بتمدد الكالـو فـي قدميـه، وآلام ظهـره المقبـب من آثـار الوقفة والانحنـاء طويـلاً على كـي الملابـس، عم مصطفـي كان متطوعًا في الجيش، واسـتمر فيه، حتى نقلـوه (صولاً) في شـرطة بندر بني سـويف، وكان أيضًا يمارس مع أبيه مهنة الكـي، حتى مـات أبـوه، وتـوارث المهنـة، وصمـم على العمـل بهـا رغـم عملـه الوظيفـي، فاسـتعان بصبـي دائم التأخير حين وجوده في العمل، كان يعشق ابنة عمه شوق، وظـل يسـعى وراءها خمـس سـنوات لرفض زوجـة عمه زواجهـا بمكوجـي، وعندما فـاز بها ظـل في ليلـة الزفاف يشرب الحشـيش وزجاجات البيرة (الإسـتيلا) الخضراء، حتى كاد يموت مـن الفرحة، وعدم اسـتيعابه أنـه تزوجها حقيقة. شـاهدتها وأنا طفلة في (سـبوع) ابنها جابر، تطبل على طبلة بلدي اشترتها من سوق الثلاثاء، وترتدي جلبابًا بمبيًّـا فاتحًـا، و(إيشـارب) الفلاحـات المبرقـش بالورود الملونة الزاهية، وضفائرها تهتز بجنون من الطبل والرقص

وكأنها لم تلد، أو تعاني، أو حتى تتألم، وتزعق فرحة وفخورة: أنا مرات الزعيم مصطفى كامل على سن ورمح. ويضحك مَنْ حولها إعجابًا بجرأتها. وتبكتها أمها غيظًا:

- لا والنبي... دا حيا الله مكوجي يا روح أمك!

بعد المعاش المبكر الذي ناله عم مصطفى زهقًا من عمله البوليسي، كان من الصباح لا يفارق جلسته، في أوقات الفراغ من عمله مع عم محمد النمر الذي يفتح قبالته محل أدوات خياطة وملابس داخلية حريمي، ويظل الاثنان يعاكسان الزبونات اللاتي كن أغلبهن سيدات، متعتهما الوحيدة التي لا تتعدى حدود الملاطفة، والإغواء، والنكت القبيحة لمَنْ تستطرد وتلعب بالعين والحاجب، وتضحك بغنج وإثارة، ويرد عم مصطفى بعنجهية وعجرفة:

- يا بت دا أنا الزعيم مصطفى كامل على سن ورمح.

تحسرت كمدًا على فراقه، فقد كان طيبًا ومرحًا، ويعتز باسمه إلى حد الهوس، وقلت تأوهًا: الزعماء يموتون، أفلا يموت أشباه الزعماء أيضًا.

أحضرت كفني الجديد

أمي تحدثني عن الفئران السبعة التي كافحت من أجل أن يموتوا، وقد أزعجوها تمامًا، وخربوا لها الخشب والملابس، ونفايات الإخراج بشعة الرائحة، حتى تحققت أمنيتها، واشتمت رائحة عفنة تشبه رائحة البنزين إلى جانب الكومودينو، وخلف شماعة الملابس الخشبية الأبنوسية القديمة من بقايا آثار أثاث والديها العتيق في حجرة نومها، كانت أمي سعيدة وهي تحكي لي مرة ثانية في أثناء زيارتي لها أن السبعة فئران مرة واحدة ماتوا، وبعد الإفراط في التعبير عن فرحتها، تبتئس ملامحها، وهي تخبرني أنها مرضت كثيرًا في هذا الشتاء، ولم تعد تستحم إلا مرة واحدة في الشهر من البرد القارص، وتهمهم بألم: متى ينتهي الشتاء؟ أكرهه. ولكنها تعاود قولاً متناقضًا: لكن الصيف أيضًا حرارته تطبق على أنفاسي وتصيبني بحالات اختناق تكاد تأخذ روحي،

وتناشـد ربها برجـاء وكأنها تحدث نفسـها وهي تسـتحوذ علـى الحـوار دون أي مشـاركة منـي غيـر هـز رأسـي والإنصـات، حتـى تزعـق فـيَّ وكأنـي ربهـا: متـي أرتـاح يا ربـي؟ منذ عشـرين عامًـا وأنا أحضـر كفنـي، وكل عدة سـنوات أتصدق بالكفـن القديـم وأحضر كفنًـا جديدًا من سـبعة أدراج.. البفتـة، القطـن، الحريـر العـادي، الحريـر الساتان اللامع، وتضغط بكفها على إحدى فخذي:

– لا تنسي يا ابنتي، كما أوصيت، أدفن في مدافن البلد (مغاغـة) (فـي المنيـا) إلـى جانـب أمـي وأبـي... وترفع ذراعهـا، ويرتفـع صوتها أكثـر: إياكـم ودفني إلـى جانب محمد زوجي.. أمي وأبي أولى بي. وانفعلت أنا أيضًا وقد شـعرت بأن الوجود الكامل والناطق الحي لأمي قد تحول إلى انتهـاء، وتلاشـى، وتبلور إحسـاس كل منـا ليمر على جسـر من النـار الملتهبـة، وقد اشـتعل على وسـادة الليل بتوجس طاغ بالخطر الوشـيك، إنه إحساس الموت الآتي عاجلاً أو آجـلاً، وما علينا سـوى الانتظـار، ورفعت يدي وصوتي أنا أيضًا وقلت:

- أمي من فضلك... كفاية - كفاية... ألف بعد الشر عليك.

وبزهو قالت: لكن كفني محترم... الأدراج فردي 3-5-7.. وتضحك فخرًا.

لكني أحضرت 7، وأوصيت التربي بدفنة تليق بي، ومن حر مالي كما أمرنا الله.

تضايقت فعلاً، وآثرت الذهاب حتى يتوقف سيل الحديث عن الفراق الذي لم أستوعبه بعد: كيف؟ هل ستموت أمي؟ كيف؟ كيف؟

- سأذهب يا أمي.. المهم إنك بخير.

فابتسمت وقبلتني.

- ولا يهمك يا حبيبتي.. سلامي لكريم.. وفجأة تذكرت كالملسوعة دون أن تتم السلامات.

- أحضرت لك الكُبشة المخرمة، والحلة الصغيرة، ودواء للصراصير والأبراص.. بعد الشر عليك من الفئران القذرة.

والتقت عينانـا وقد لفني الحـزن بغلالة من هـم انتظار الفراق لأمـي التـي تخطـت الــ 70 عامًـا، ومقلتـا عينيها تصرخـان بوجـل وتهافـت وتتسـاءلان: متـي الرحيل عن وطني؟

عائشة من دارفور

كم هـو مؤلـم أن يقـول لـك الآخـرون "كونـي قوية" وليس لديهـم أي فكرة عن صعوبـة ما أمر بـه أو أتحمله.. بهـذه العبـارة المؤثرة تفوهـت بها عائشـة السـودانية لكي تمنع دموعها أن تنهار وهي تسـتحلفني أن أرحم ظروفها، وأقف إلـى جانبها، ولكن كيف لي أن أسـاعدها؟ فعائشـة وافدة سـودانية من دارفور، وعند قيام هذه الحرب البشعة في 2003 بسـبب نزاعات قبلية وعرقية، مات زوجها عام 2009، وأحرقوا كل شـيء، وبالكاد اسـتطاعت أن تهرب بأولادها الثلاثة محمد جابر لميح، ومحمد شـريف لميح، ومحمد همام لميح، دونما أي أوراق أو أغراض، ودخلت مصر عبر رحلة شاقة بمسـاعدة المفوضية في مصر، ولولا رحمـة اللـه لمـات الأطفـال الثلاثـة المقيـدون لدينـا في المرحلـة الابتدائيـة فـي الصفـوف: الثالـث، والخامـس، والسادس، وظلت الأم المكلومة بغربتها وتشردها تكافح، فعملت كل الأعمال المتاحة لها، مـن خادمة في المنازل،

إلى بائعة في المحال، إلـى عاملة نظافة فـي حضانة، حتى أبدعـت وتفننت في فـن التجميـل، وفرضـت موهبتها في أحـد محـال الكوافير فـي مدينـة 6 أكتوبـر، وخاصة صنع الوشـم والتاتـو والرسـوم الغريبـة والبديعـة للسـيدات والفتيـات بالحنـاء، علـى الكفيـن والبطـن عنـد الصـرة، وكعـوب الأقـدام، وكل مـكان يرغبـن فيه، حتـى الأماكن الحساسـة والمثيرة في المرأة، وبمهارتهـا وإخلاصها ذاع صيتهـا في العمـل في محـل الكوافير فـي مدينـة 6 أكتوبر لمدة خمس سنوات حتى اسـتطاعت أن تعمل في (سنتر) كبير في وسـط البلـد في محافظـة القاهرة، ومـن ثم نقلت السـكن، وأصبـح لزامًا نقـل أطفالهـا الثلاثة إلـى مدارس قريبة مـن العمل والسـكن الجديديـن، وتربـت على يدي تستجديني:

- ألا تساعدينني يا أبلة أسحب الملفات؟

- لكـن يـا عائشـة لا بـد مـن شـهادة وفـاة الأب حتى تسـتطيع الأم سـحب ملفات أولادها لنقلهـم إلى مدارس أخرى.

وانهارت أخيرًا وبكت بكاءً مريرًا وهي تقول:

ـ يا ربي... كيف تصدقونني يا ناس؟ ارحموني.. ألا تعلمون ما هي الحرب؟ أرجوكم ارحموني... الحرب قتلت زوجي، وأحرقت الأوراق، وهدمت بيوتنا وشردتنا وفرقتنا عن أهلنا وأحبابنا ووطننا... وبالكاد أنقذنا أرواحنا وأرواح أطفالنا.

أين وطني؟

لم يكن الرجل متقدمًا في السن، لكن كان واضحًا أن أيام عمره لم تكن رفيقة به، كان يستخدم أداة تعويضية في إحدى ساقيه، لكنه رغم ذلك تمكن من حمل حقيبة ضخمة قديمة الموديل، جلدها الأسود مهترئ عند حوافها، وقد استقر به الطريق في مقهى مقابل منزله ذي الأربعة طوابق في مركز المنزلة بمحافظة المنصورة.

بعد عقاب قاس بالنقل، ودفع المستحقات المالية من راتبه الشهري، وجزاء مقيد في ملفه الوظيفي كنقطة سوداء لن تفارقه، لاتهامه في تحقيقات النيابة الإدارية بسرقة وإتلاف محتويات من عهدة المسرح، أخشاب، وملابس، وإكسسوارات مسرحية؛ حيث عمله أمين العهدة في قصر الثقافة المركزي في الدقهلية، وتم النقل إلى قصر ثقافة الحي السادس بمدينة 6 أكتوبر في محافظة الجيزة، استسلم لقدره نازحًا بأسرته إلى العيش في الغربة، فهذا

إحساس المصريين داخل مصر.. ما دمت تبعد عن مكان مولدك فأنت في غربة، وخاصة إذا كان قهرًا وظلمًا؛ لأنه بالتأكيد ليس السارق، فماذا يفعل بملابس وإكسسوارات مسرحية قديمة، وأخشاب ديكورات مسرحية، كل الحكاية أنها تلفت وتآكلت من العتة، والقذارة في المخزن أوجدت بيئة مناسبة لتوطين الفئران، والعرس، والأبراص، حتى الصراصير، وأقسم لهم مئة مرة في التحقيقات أنه لم يسرق شيئًا، ولا أحد آخر سرق الأخشاب والملابس، كانت غذاء الفئران، ومخبأ للحشرات الأخرى في الشتاء والصيف ليس إلا، والصفة الإنسانية فرضت نفسها بالتكيف في شقة إيجار جديد، وظل حلمه الوحيد أن يعود إلى وطنه الصغير الذي أفنى عمره في بنائه وتشييده على أكمل وجه له ولأولاده الأربعة، وهو يتذكر بتفاؤل مفتعل أنها كلها حوالي سبع سنوات، ويخرج على المعاش، ويعود قسريًّا إلى بلدته، كما يحدث في الأفلام السينمائية.

في ليلة مشئومة تعارك ابنه الكبير الملتحق بأحد المعاهد الفنية في مدينة 6 أكتوبر هو وأصدقاؤه مع شباب

من الجماعات الإسلامية المتطرفة الذين تمددوا وتشكلوا كالجـراد فـي كل مـكان بعد ثـورة ينايـر 2011، ولسـوء الحظ، اشتعلت الدراما بالسلاح الأبيض، وجنزير حديدي ملقى في الشـارع، رفعه الابن الطائش وقتـل أحد العناصر المتطرفـة، ولـم يكن هنـاك مخرج غير هـرب الرجل بابنه، المراد الثـأر منه من أهـل القتيل، غير ملاحقة الشـرطة له، ولـم يسـتطع أن يتـرك بقية الأسـرة خوفًا مـن اختطافهم أو قتلهم ثـأرًا للدم المهـدر، وبدأت رحلة الشـقاء والتعاسـة التـي لا مثيـل لهـا، بهروبـه مع أسـرته شـهورًا طـوالاً من محافظة إلـى محافظة، حتى اسـتقرت به الحـال في مقهى مقابل منزله فـي مركز المنزلة مع ابنـه القاتل ينتظر حضور الشـرطة لتسـليم ولده ليرحل عنه حلمه في وطـن صغير، وفي جزء من قلبه وحياته ابنه البكـري، بينما الأم بمكالمة تلفونيـة تبلغ عن وجـود ولدهـا المطلوب تسـليمه لإدانته بالقتل الخطأ على المقهى مع أبيه.

الحياة في مساحة متر ونصف

أبلة شوشو دلع شادية، وفيبي دلع فوقية، ليستا سيدتين كسائر السيدات، وإنما هما مخلوقتان غريبتان، في حياتهما ألغاز لا تفهم، وفي طبيعتهما عناصر لا تدخل في تركيب البشر منذ كانتا طفلتين تتلذذان بتناول ساندوتشات الفينو بالسكر، والمكرونة اللتين أصبحتا الآن عدوهما اللدود بعد إصابتهما بالعديد من الأمراض، أولها بالطبع مرض السكري.

أبلة شوشو تزوجت وعمرها تسعة عشر عامًا، وأدركت من رحلة العلاج الطويلة بحثًا عن الأمومة أن زوجها لا ينجب، وتتنهد تحكي بحسرة وأسى: استنفد عمري معه كسحابة عابرة.. بعد خمسة وثلاثين عامًا أتذكر وهو يقول لي، يا شادية من حقك أن تتركيني، وتطلقي وتبحثي عن زوج يحقق حلمك.

كان زوجًا أنانيًّا، شرهًا في الطعام والتأنق في ملابسه

زيادة على الحد، وسهراته مع أصدقائه التي تجلبه إلى المنزل في أحيان كثيرة مع بزوغ فجر اليوم التالي، وأنا وحيدة خائفة، منزوعة من كل دفء وحنان وتسلية، وقد تحولت إلى كائن هش، خامد، ليس عندي أي قدرة على اتخاذ القرار الصائب أو الخطأ، فأنا مجرد رد فعل للآخرين، يفعلون بي ما يشاءون، وليس أمامي غير الانزواء، وتمزقت إحساسات شتى داخلي كلها متضاربة، منها الدهشة من عبث القدر معي، ومنها اليأس، ومنها الغضب من سلبيتي، ومنها دوافع الجنس، حتى أهمد تمامًا وأقبع إلى جانب الحائط كجرو صغير بائس.

مات زوجي وكان عمري خمسة وأربعين عامًا إلا شهرين، وعندما رأيته جاثمًا في سريره، تركت خيالاتي الحزينة، والعمر الذي مضى يفتش عن قراءة عن معنى لحياتي أمام عينيه المغلقتين، وتماست روحي مع تلك الجثة كلوحة صماء يمزقها فراغ المكان والحياة حتى من هذا البغل الميت، قررت أن أقوم بزيارة قصيرة إلى بيت الله، وكان يتبقى شهران على تمام الـ 45 عامًا لأذهب لعمل العمرة دون محرم، بعت خلالهما شقة الزوجية في

الزيتون بمحافظة القاهرة، واشتريت شقة مكونة من حجرة وصالة ومطبخ وحمـام لا غير، إلى جانـب أختي فيبي في إمبابة، وبالمناسـبة هي عاقـر لا تنجب، وبـدأت أحرضها على العيش معي، فهي أيضًا ملت وكرهت معاشرة زوجها سعيد الذي كان يعمل مديرًا ماليًّا لمصنع كبير، حتى قامت الحكومة في عهد الرئيس السـابق حسـني مبـارك، بحملة خصخصـة للعديد من المصانع، فباعته لمسـتثمرين جدد، مختلطي الجنسـيات، أخـذوا قروضًـا من البنـوك بضمان المصنـع، وهربـوا بالمـال، وأفلـس المصنـع، واضطرت الإدارة إلى تسـريح جميـع العاملين فيه، وإغلاقـه، وبيعه، وتحويله إلى عمارة شـاهقة، وكأن شـيئًا لم يكن.. تقاضى رفعت مكافأة هزيلة ومعاشًـا مبكرًا يدخره للأدوية بعد أن أُصيـب بـكل الأمـراض، القلـب، والسـكري، والضغط، والروماتيزم، حتى تعددت وتنوعت الأدوية في كيس كبير يضعه على الكومودينو إلى جانب سـريره، وأسـفل زجاج الكومودينـو يضع ورقـة بمواعيـد تناول الأدويـة، حتى لا تختلط مواعيد الأدوية بعضها ببعض.. وتتوجهما العصبية الشـديدة والانفعـال لأتفـه الأسـباب كأنـه جمر مـن النار

مشتعل على الدوام، مما يدفع فيبي إلى معايرته وإخراسه وإحباطه تمامًا بالصراخ في وجهه: روح كفاية خناق يا قلبي روح يا سعيد شوف كيس الدوا ليكون تاه منك... روح يا فاشل.

شوشو وفيبي تعشقان غناء الفنانة وردة الجزائرية، وكانت المفاجأة الرائعة أن صنعت شوشو بروازًا ضخمًا ومذهبًا وجميلاً أقرب إلى الجدارية للفنانة الكبيرة، ووضعته فاصلاً بين السريرين الذين لا يتجاوز طول كل واحد منهما مترًا ونصف المتر، وعرضه متر لضيق الغرفة الوحيدة بالشقة، لتقضي شوشو فيها بقية حياتها مع شقيقتها الوحيدة فيبي، وأحيانًا تتمردان على مرض السكري المصابتين به، وتتناولان سندوتشات الفينو بالسكر والمكرونة، أكلتهما المفضلة منذ كانتا صغيرتين، وتلعبان لعبة الأغاني القديمة، فهما مغرمتان بسماع ومشاهدة روتانا كلاسيك (الأغاني القديمة)، تغني شوشو غناءً مرتجلاً لأغنية ما، وعلى فيبي أن تخمن لمن، وتصرخ:

- وردة.

فتضرب شوشو على يديها بخفة ودلع:

- لأ.

- طيب نجاة.

وتخرج شوشو لسانها بسخرية لها:

- لأ.

وتميل فيبي برقبتها، وتقترب بوجهها، وتجحظ عينيها بتعمد لإرهاب أختها وتصرخ فيها:

- يبقى أكيد فايزة أحمد يا شوشو.

وتصرخ الأخرى، وقد برقت عيناها نورًا ووهجًا ضاحكة بصوت عالٍ:

- لأ.. عزيزة جلال يا فيبي.

المتمردتان

مـال العالم يدفعنـي إلى حافـة الجنون، تلـك الأحلام الغريبـة والملعونة تملأ حـالات نومي ويقظتـي بذكريات تلتصق بي كحشـرة القراض تنمـو وتكبـر داخلي كوحش كاسـر، لتدفننـي فـي دوامـة مـن الأفـكار المضطربـة مـع هواجس فراق الشباب والحيوية والنضارة ليترهل جسدي وتخمد روحـي، وفوبيا البحث عن أفضـل برامج الدايت، أمام سمانة الردفين والكرش والنهدين المتهدلين، وظلال سميكة تخفي هالات وتجعيدات كشباك العنكبوت تنسج تحت عينـي، وعند جبهتي، سـأبدأ منتصـف الأربعينيات، أعوام النضج، والصمت المرعب، تلـك الحقائق المرعبة مثـل أحلامـي الملازمـة لـي.. الآن أشـعر بتوسـيع دائـرة الاشتياه، ليس فقط باستخدام الحواس الخمس الموجودة لـدى الجميع؛ وإنمـا تزيدهم الآن الحاسـة السادسـة التي تخـرج منهـا تجـاوزات الفهـم والاسـتيعاب لأدرك سـبر أغوار الأشـخاص والأمـور في وقـت قصير جـدًّا، وأهزأ

وأتعجب من تلك الحاسة الجديدة ذات الاستقصاء البعيد من مجرد مؤشرات مألوفة، وحركات باتت واضحة بكل بساطة لتفهم الأمر والشخص معًا سريعًا، إنها الخبرة الملعونة كأحلامي أيضًا.

أمس حلمت حلمًا غريبًا، بل أشبه بكابوس، أنني في منزل جدي القديم ذي الأبواب الخشبية القديمة الضخمة، والشبابيك الطولية لتلك الحجرات ذات الأسقف العالية، وعندما اتجهت إلى باحة المنزل الواسع الخلفية، رأيت أدراجًا كثيرة، وكأننا في فصل مدرسي كبير لا حدود له، وسرت إلى نهاية الأدراج، ثم مشيت في ردهة طويلة حتى وصلت إلى باب موصد عتيق الطراز مثل أبواب حكايات ألف ليلة وليلة، دفعته بكلتا يدي، وكان فصلاً دراسيًّا كبيرًا وواسعًا.. جدرانه رمادية اللون، والسقف معلقة به مروحتان قديمتان على التوازي وتتدلى منهما الأسلاك، وتدوران بأقصى سرعة، حتى عندما أطلت النظر إليهما، ارتعبت بتخيل سقوطهما عليَّ وقتلي، واكتمل فزع المشهد بالتلاميذ المتراصين في الأدراج بنظام، منكفئين داخل رؤوسهم على الأدراج كالنائمين

نوم الميتيـن.. هلعت روحي، وتشـتتت أفـكاري، وكدت أصـرخ، وجريت إلـى آخـر الفصل أحـاول الاختبـاء وأنا أراقب ما يحدث من بعيد، وبعد سـويعات مـن الوقت بدأ بعض التلاميذ يسـتيقظون، ويخرجون، والباقـون ما زالوا علـى وضعيـة النـوم الأشـبه بالمـوت، وتخللت جسـدي بـرودة كالصقيع، جمـدت أطرافـي، واصطكت أسـناني، وقرقرت بطني، وكنت أرتجف من رأسي إلى عقب قدمي كغصن شجرة داخل الماء، وسـقطت على الأرض أجلس القرفصاء دافسـة رأسـي داخـل ذراعـي، وبكيت بـكل ما أوتيت من قوة، حتى أجهشـت بتنهدات عاليـة كمَنْ يعدد قهـرًا من حزن سـاحق وماحق، حتـى على غفلة، تسـللت فتاة صغيـرة بخفـة الأرواح، عيناها نورهما خابٍ، وتشـع منهمـا رائحـة الموت الـذي عـاد إلى الحيـاة بغتـة كروح شـيطانية، وربتت على كتفي وأمرتني أن أخرج سـريعًا من هنا، وذهبت عني، واستجمعت قواي المتخاذلة، وأنفاسي لا ألتقطهـا مـن البـكاء، والفتـاة الصغيـرة واقفة تنظـر إليَّ نظرات أشـبه بالسـهام تكاد تصيبني في مقتل، وبمجرد أن خرجت من باب الفصـل لمغادرة المنزل، اسـتيقظ جميع

التلاميذ بنفس عيون الفتاة الصغيرة ينوون اللحاق بي، هكذا شعرت، وحضرتني قوة الحياة والمقاومة، فجريت بأقصى سرعة وهم يجرون خلقي فعلاً، استيقظت على صرخة، أشهق كأنني كنت أجري حقًّا، ونهضت فورًا.. غسلت وجهي ورأسي بالماء الساقع، حتى أهدأ، وعدت إلى فراشي يلزمني الصمت وأنا أحاول أن أتجاهل الأمر وأدعي أنه ليس إلا كابوسًا وسأتجاوزه.. لكن مع الأسف، بعد عدة أيام، وأنا جالسة بمفردي في البلكونة أشتم نسمات الصيف العليلة، رفعت سهوًا عيني إلى السماء المظلمة أتامل وجودها وأشاركها اكتئابها عن حالها وحال الطبيعة الذي أبان عن شحوب بواكير النجوم البازغة في سماء الليل، ومن بعيد يبدو نور خافت لقمر يتوارى كفتاة خجلة من الظهور كاملاً، ثم ألقيت نظرة إلى أسفل، حيث يعيث البشر في الأرض فسادًا، فرأيتهم وحوشًا ضارية، ورغم كل ما يدعونه عن المحبة والمودة الإنسانية، فإن العنف بين البشر هو أساس الاستمرار في الحياة.. ذلك الإنسان ما هو إلا كائن قاسٍ بلا رحمة، يحارب أخاه الإنسان، والطبيعة والكون جميعًا من أجل

رغائبه وطموحاته الغبية؛ لذا اعتقدت أننا نحن فقط المخلوقات القاسية في هذا العالم، إذن من الأفضل أن يدمر هذا الكون، وتنهار الجبال، وتهب الرياح، وتعصف العاصفة المدمرة، وتنشق الأرض، وتبتلع البشر، وكل المدن القائمة على أرض وطني بزهو وتعالٍ.. إنها من صنع ذلك المخلوق المتعجرف، المتيم بعبقرية الوجود.. فليذهب إلى الجحيم، وتعُد الطبيعة الغاضبة من تخريبها والاستهانة بها، بأشجارها الخضراء الوارفة ونقائها، وأنهارها الجارية بانسيابية، وجبالها الشاهقة خلف التلال مع أربابها، من الحيوانات والطيور.

رجعت برأسي إلى الخلف، وأغلقت عيني من تلك الأحلام الكابوسية التي تشغلني، وقررت هذه المرة أن آخذ دشًّا باردًا وأضع رأسي وجسدي كله تحته فترة طويلة ربما أفيق من تمردي أنا والطبيعة.

مصر هي أمي

أتذكر الوقت الذي خططت فيه تلك الكلمات الثلاث في الصف الخامس الابتدائي، وكنت قبل أن أشرع في كتابة واجباتي المدرسية، أشتري أكثر من قلم، كل الألوان، وأجرِّب مدى دقة ورونق الأحبار على السطور قبل أن أستخدم الأقلام لتحسين خطي السيئ، وتزويق الصفحات وتنميقها حتى أحصل على الدرجات النهائية التي يعوق وصولي إليها سوء خطي.. ومع العناد والتكرار حصلت على النجمة الخماسية وVery Good، فتفاءلت بتلك العبارة، ولازمتني حتى الآن إيحاءً بالجد والنجاح، رغم أني كبرت وحصلت على شهادة الجامعة، وتزوجت وأنجبت، وعملت في إحدي الوظائف الإدارية في الشئون القانونية بالنيابة الإدارية في مدينة 6 أكتوبر بمحافظة الجيزة.

وإن كان استخدامي الآن يعتمد غالبًا على القلم الأزرق الجاف، لكني ما زلت أجرب خطه قبل الكتابة،

وأخط نفس العبارة الغريبة لي الآن، وأمارس تجربتي الطويلة الأمد خفية عن أنظار زملائي في العمل، وكأنها باتت سري الصغير، حتى لاحظت في يوم من الأيام زميلتي فعلتي الغامضة بالنسبة إليها، وأثارت حفيظتها، وسكتت برهة من الوقت حتى تستوعب ما أفعله، وقالت باستفسار:

- يعني إيه الجملة دي؟ وضحكت سخرية.

بهت وصمت ولم أرد، وسألت نفسي: لم أسأل نفسي هذا السؤال من قبل.. وتغاضت هي عن انتظار إجابة مني، بل تجاهلت شأني اعتقادًا منها لتفاهته، وعدت إلى نفسي أسألها مرة أخرى بحسرة الفاقد لشيء، دون أن يواجه نفسه بذلك إطلاقًا: فعلاً ما معني أن مصر هي أمي، وهل أنا وكل الآخرين والأخريات نشعر بذلك؟ وهل من الممكن أن يشعروا بذلك وأنا لا؟ هل أحسست بمدى أهمية تلك الجملة من قبل في حياتي الماضية والحاضرة، وهل من الممكن أن أشعر بها في المستقبل؟ وإن كنت لا أشعر بها، لِمَ أكتبها دون إرادة مني منذ كنت

طفلة؟ هل هي مجـرد عبارة خطها قلمـي دون وعي، دون إدراك، دون فهم طول ثلاثين عامًا؟ مصر هي أمي دون أن أسـبر غور ذاك في حياتي عن كيف هي أمي؟ وماذا فعلت أمي لـي؟ وأين رحلـت أمي الآن؟ شـعرت بالضيـاع التام وسـط توهة الأسـئلة التي داهمتني كريـح عاصفة أطاحت بثلاثين عامًا من عمري منذ ذاك الوقـت الذي خططت فيه (مصر هي أمي)، وعادت رندا زميلتي إلى التهكم الصريح بضحكة مجلجلة أحرجتني وقالت:

- ما لـك يا حلـوة؟ بقـى مصر هـي أمك؟ مـن ورانا؟ وضربت بشدة على ظهري كمَنْ ينقذ أحدًا جاءته (زغطة) خلال تناول الطعام فجأة، وقالت وهي لا تزال تضحك:

- أمك فـي البيت يـا روح أمـك... وأقولـك كمان... مصر مش أمي... إيه رأيك بقى؟ فما كان مني حتى أحفظ ماء وجهـي الذي اصفـر، بعـد أن شـاركتها الأخريات في الحجرة الضحك سخرية، إلا أن قلت بفجاجة واستياء:

ـ يا رب يا رنـدا تحجي بيت ربنا علشـان تهدي شـوية وترحمينا من سخافتك دي.. ربنا يهديكي.

تمارين الحزن

في منزلي أكـون وحيدة، أنا في منـازل الأصدقاء أكون خارج نفسـي، في شـوارع هـذه البلدة أسـير فيهـا، خارج طرق البشر، وأسير داخل نفسـي المغتربة فقط لا غير، أنا فـي هـذه الوحـدة المدرسـية رايـة مـن علـم ملطـخ بكل الألوان، وكل الأشـكال تتواطأ لصنع نفـس مزيفة، غير ما تتمنـاه نفسـي... وأمـام كل الآخريـن أكـون غير مـا أريد وأطمح ، وتخـرج أمامهم نفـس مهترئة ممزقـة بذكريات الماضـي وخيبات الحاضـر التي تلاحقنـي، ويدور حدث جلل في الشـارع، ولا أبالي، وأهرب من الأنـوار، والعلم الـذي يمقتني داخـل الوطـن، وأبتعد عن هنـا لأقف هناك بعيـدًا، لا أعرف ماذا أفعل؟ فأشـد الغطاء أكثـر فأكثر على سـريري، حتـى لا يظهر شـيء البتة مـن جسـدي النحيل، وروحـي الضامـرة، وأردد كالببغـاء: سـأمارس تماريـن الحـزن، تماريـن الحـزن هـي الحـل الحاسـم لهـذا البرد الأهوج والاغتراب القاتل.

تمرين رقم 1: أنت تكون متخمًا بطاقة لإنجاز أي فعل ضخم، وصنع دوي هائل وسط الأصدقاء، وفجأة روحك تنشطر إلى جزيئات متناثرة كالزجاج المهشم، لا يعود إلى سابق عهده، ولا تعود أنت قادرًا على فعل أي شيء، ولا تجد أي رد أو تفاؤل لتصد ذلك السهم النافذ والقاتل لإرادتك.

تمرين رقم 2: فارس أحلامي الذي أحببته حب حياتي، في عبارة مختصرة مات في ادعاء حادث على الطريق السريع في يوم محفور في ذاكرتي (28/ 2/ 2010) في أثناء ركوبه موتوسيكلًا حقيرًا، كان وسيلته الوحيدة في التهام الطرق والبحث عني.

تمرين رقم 3: في شدة اكتئابي وإحباطي، أتجمل بالمساحيق الزاهية الألوان، حتى أبدو كالبلياتشو، وأرتدي بلوزتي ذات اللون الأخضر الزرعي، والجيب الأسود الضيق (المحزق) على ردفي، والطرحة الصفراء، حتى أهاجم فصل الشتاء بضبابه القاتم، والصيف بحره المنفر بألوان الربيع المنعشة.

تمرين رقـم 4: عندما لا أجـد مكانًا أذهـب إليه، أقطع تذكـرة في المترو فـي أي اتجـاه دون هـدف للوصول إلى مـكان محـدد، وأجلس علـى المحطـة، أمعـن النظـر في الموديـلات الجديـدة والتقليعـات اللافتـة للنظـر لهـذا الموسـم بتفحص بعيـد عن الشـبهات لما ترتديـه الفتيات والسـيدات الهابطات مـن المتـرو القـادم أو الغاديات مع المترو الراحل.

تمرين رقم 5: أحلم دائمًا أننـي أجلس على ربوة عالية خضراء ثـم أتدحـرج عليهـا مسـافات طويلة مندفعـة إلى مصيـري بيـن أحضـان الـزروع والميـاه، وتتحـرر روحي فيهما، وأنـا أرغب لروحي الهائمة في سـحب الأحزان أن تستقر على أرض النقاء والطبيعة الحرة حتى لو موتًا.

تمريـن رقـم 6: بـأي طريقـة لا تجعلهم يحولـوك إلى شيء آخر، غير ما أنت عليه، ربما تخضع للعبتهم، وتعتقد أنك الفائز، ولكنك الخاسر أمام نفسك التي لا تستطيع أن تتخلص من إيلام الذات الموجع جدًّا لك.

تمرين رقم 7: يفتح الإنسـان ذراعيـه للدنيا ويصلب.. هكذا أخبرنا شاعرنا أراجون.

محامٍ من الفلول

عبد الرحمن القصيري المحامي الألمعي من مواليد محافظة أسيوط، ابن عمدة، أبًا عن جد، ورغم أنه من فلول الحزب الوطني الذي انحل بعد ثورة يناير 2011، وكان فيه عضوًا بارزًا في لجنة الحريات بفرع مدينة بني سويف، فإنه ما زال محتفظًا بلقب القصيري الألمعي؛ لشهرته الذائعة الصيت كمحامٍ كفء، خاصة في قضايا المخدرات والجريمة وأغرب القضايا. الألمعي بعد أن نال شهادة الحقوق من جامعة بني سويف، تزوج ابنة عمدة مركز بارود، وبزواج المال والسلطة، فتحت له كل الطرق إلى الشهرة والثروة مع اجتهاده وذكائه الذي لفت الأنظار إليه، ودفعه إلى الترشح في انتخابات المحليات بمركز بارود عن بندر بني سويف عام 2015، وهنا يضحك القصيري، ويتذكر موقفًا لا يُنسى تابعه في انتخابات 2009؛ أن أحد المرشحين حصل على 260 ألف صوت انتخابي؛ لأنه من أعضاء الحزب الوطني،

وآخر يطفح الدم من أجل أن يحصل علي ألفي صوت، حتى استشاط غضبًا أحد الداعمين لحملته الانتخابية: يا ولاد الكلب، عشان تبع الحزب؟! إن شاء الله حاتقوم ثورة ونعتقلك يا باشا إنت وهو يا خونة يا ولاد الجزمة بعتم البلد.. ربنا ياخدكم. ويتحسس الألمعي ذقنه وهو يتذكر ويرد عليه داخل نفسه: آدي الثورة يا بن الوسخة قامت والبشوات داخلين الانتخابات من تاني.

الألمعي في أي مناسبة لا يتخلي عن ارتداء العباءة البلدي، من أجود وأفخر أنواع الصوف في الشتاء، ومن قماش الجبردين الممتاز أو الكتان القطن في الصيف، فوق الجلابيب والبدل، استكمالاً لعزة النفس والاعتداد بها.. من أغرب القضايا التي ترافع فيها الألمعي، بعد أن فشل محامٍ كان يعمل عنده في حلها، فأرجأها للأستاذ الألمعي، قضية صبي لم يتجاوز عمره أربعة عشر عامًا، قفز من سور مدرسة الشعب، المشهورة بمقولة (لم ينجح أحد)، إلى سور مدرسة بنات الغمراوي، السور طوله حوالي 3 أمتار، تسلقه وسرق من إحدى البنات سلسلتها الذهبية، وفر هاربًا مرة أخرى إلى المدرسة، وبالتأكيد

لاحقه المدرسون والناظر، وشهدوا ضده في تحقيق النيابة، وحار الألمعي ماذا يفعل في هذه القضية.. الإدانة ثابتة على الصبي.. فأحضر الولد المتهم وظل يمعن النظر إليه، فلاحظ أنه قصير القامة؛ حيث كان طوله حوالي 90 سم، فبزغت الفكرة أمام القاضي بعد أن صور سوري المدرستين وهو يتساءل بنباهة: هل يعقل يا سيادة القاضي، ولد بهذا الطول أن يقفز من سور مدرسته الذي يتعدى الثلاثة أمتار إلى مدرسة بنات الغمراوي التي ربما يزيد طول سورها عنه ويعود مرة أخرى إلى مدرسته؟ فرجع القاضي إلى الوراء، مبتسمًا، وقد راقته الفكرة، لكن فجأة قفز من خلف سور القضبان الصبي المتهم وقال ببلاهة: لا، أنا أعرف أنط كويس يا باشا. فتجهم الألمعي، وتكدرت ملامحه، ونظر إلى أسفل قدمه أسفًا وكمدًا، فضحك القاضي وقال: ما رأيك؟ بماذا أحكم عليه يا قصيري بيه؟ فعاجله الألمعي ردًّا: إعدام يا سيادة القاضي. ونظر شذرًا إلى الصبي، وأشار إليه بسبابته غضبًا: دا ولد غبي.. ويستحق إعدام.

لقاء ووداع

جلست إلى جانبي في أتوبيس رقم 13 المتجه إلى ميدان الجيزة من موقف أتوبيسات الحي السادس بمدينة 6 أكتوبر، عزيزة الحمصي بظهر محدودب، يرفع طرف العباءة من الخلف لتتدلى من الأمام قليلًا، تمسك بيدين مرتعشتين حقيبة بلاستيكية، وتظهر أكمام بلوفرها.. غرزة منفلتة.. وخيوط صغيرة متناسلة، وشبشب أسود قديم بدون جوارب رغم البرد القارص في شهر يناير، وحجاب خفيف تربطه كالإيشارب بعقدة عند رقبتها متدليًا تتسلل منه خصلات شعر أسود تتخلله شعيرات بيضاء كثيرة، سألتني بابتسامة.

- أنتِ من أكتوبر؟

قلت بعدم اكتراث:

- لأ طبعًا... هو في حد من أكتوبر.. أنا من البحيرة، واتجوزت وعملت هنا.

انبسطت أساريرها وقالت ببهجة:

- أنا كمان من إسكندرية، محرم بك، وأتمنى أعود إليها وأموت بين أهلي.

نظرت بتمعن إلى وجهها الصغير المستدير، استدارة مكتنزة، والنظارة سميكة العدسات تغطي أغلبه خلف نقرتين وليس عينين وقلت:

- يعني زي بعض...

- أنا خريجة تجارة 1985، وكنت أشتغل في بنك في الإسكندرية، ولما جه الراجل ده جوزي خرجني من العمل، وعشت معه في أكتوبر في حي البشاير.

وقلت باستغراب، ومواساة، ولم يعد من الممكن سبر أغوار النبرة التي تستخدمها لتعبر عن حزنها الدفين:

- وليه تركت العمل ولم تنقليه هنا؟

- ده راجل بخيل، ومعفن، ولا ينجب.. كل ما يهمه الطعام، وسيارته اللي هي عنده أعز من نفسه.. الله يرحمك يا أمي.. إمتى أذهب إليكِ وأدفن.. في إسكندرية

جنبك لأرتاح مـن حياتي كلها.. وربتـت على فخذي وقد أصبحت نبرتها مأساوية:

- تعرفي أحيانًا أتركه ذهقًا، وأمشـي في شوارع أكتوبر يمكن تصدمني سـيارة وأمـوت وأرتـاح، ولمـا أتعب من المشي أرجع زي الكلبة للبيت.

قلت بتكلف:

ـ بعد الشر عليك.. واسـتطردت أحاول الترويح عنها، وقد انفصلنا عـن أجواء عالـم الأتوبيس تمامًـا، وكأننا بتنا في مقهـى أو فـي منزلنـا نتراشـق حـوارًا حميميًّـا دافئًا لا ينقصه إلا احتساء مشروب ساخن.

- وإنتِ رايحة فين دلوقتي يا....

قالت سريعًا: عزيزة الحمصي.

ابتسـمت بفتور.. جميل اسـمك.. وتلعثمـت النقرتان اللتان خلف النظارة المقعرة خجلاً وتدفقت بعض الحمرة على وجهها الشاحب والممصوص قهرًا وقالت:

- رايحة الهرم، شـارع سـباتس، عند النيابة العسـكرية المعروفـة، كانت أمـي تعيش مـع أبوي قبل موته في شـقة

هناك إيجار قديم، كانت أمي هي صلـة الحياة الوحيدة بيه هنا، مارجعتش إسكندرية علشـاني، وبقية إخواتي الأربعة في إسكندرية.

وقلت تفاعلًا في الحوار:

ـ ولكنك قلتِ من شوية إنها ماتت..

أيوه، صاحبة الشـقة الحاجـة عفيفة الطيبة في عشـرتها والجيرة لها تـلات أولاد صبيان متقاربين فـي العمر، قتلوا واحد بلطجي في أيام ثورة يونيـو 2013، والتلاتة دلوقتي في السـجن مرة واحدة، وأمـي أوصتنـي دون الجميع بعد موتها إن أسلم الشقة للحاجة عفيفة الطيبة، من غير ما آخد أي مليـم منهـا، وآخـذ حاجاتهـا أو أتصـدق بيهـا، زي ما أشـوف.. وتوقفت عزيـزة الحمصي، وعادت برأسـها إلى الوراء، رغـم ظهرهـا (المأتـب)، وتنهدت بحـزن العالم، وقـد لمعت عيناهـا النقرتـان بدمـوع عصت علـى النزول وقالت:

– وخـلاص ماتـت أمـي.. ورايحـة لتسـليم الحاجـة المسكينة الشقة، وآخد حاجات أمي.

أنا لاجئ من فضلك

كان يحاول التحدث بتهذب، رغم وجهه المكفهر بملامح الغضب، الذي يشتعل من جوفه اشتعالًا يطفو غرقًا في عينيه، وحركاته العصبية، وقال:

- أريد إثبات قيد لابني حمزة من أجل المنحة الدراسية.

قلت غير مهتمة كالعادة من كثرة ما يأتيني من الوافدين السوريين، لآخذ إثبات قيد يثبت وجودهم ضمن الطلاب المصريين دون أن أنظر إليه:

- لا مشكلة يا أستاذ، أريد جواز سفرك أنت وابنك، وتاريخ تجديد الإقامة الجديدة لعام 2014.

ودون توقع من رد فعله، رغم أن مؤشراته كانت واضحة للجميع دوني بغبائي، ضرب على مكتبي بصوت مرتفع:

- أستاذة.. أنا لاجئ، لاجئ سوري، ولست وافدًا كالباقين.. أنا في بلدكم دائم وليس لي تجديد إقامة.. يلا

أعطيني إياه، لا تضيعي وقتي من فضلك. فقلت وقد ارتفع صوتي أيضًا من هياجه العصبي هذا:

– يعني أيه يا فندم.. أنا لا يشغلني لاجئ أم وافد.. أريد ختم تجديد الإقامة لهذا العام في جواز سفرك أنت وابنك.. هذه إجراءات لا بد منها. وزاد الموقف توترًا وصرخ في وجهي بوقاحة:

– ألا تفهمين؟ لست وافدًا.. أنا لاجئ، لاجئ يا ناس. وأخرج جواز سفره و(كارت) أصفر سميكًا ومغلفًا وقربه إلى وجهي:

– اقرئي يا أستاذة، وارحميني.. لاجئ سياسي.. لاجئ، لاجئ، لاجئ. وتدخل الأخريات سريعًا يجذبنه بعيدًا عني ويلاطفنه:

– اهدأ، اهدأ يا أستاذ.. لا عليك.. عرفنا أنك لاجئ، وسنعطيك إثبات القيد.. اهدأ واجلس. ولكزتني أبلة هناء لكي أخرج من الحجرة حالاً، وجذبته من ذراعه إلى أقرب كرسي وهي تبتسم بتكلف وقالت:

- ما بك؟ هل تريد أن تشرب شايًا معنا؟ اجلس. وأشارت تنادي على سعاد:

- الشاي يا سعاد. وعادت إليه تلاحقه بالابتسامة والقول:

- ألم يقولوا لك إن المصريين طيبون يا عم.. اتفضل. وذهبت بنفسها إلى دولاب الأرشيف الخاص بي، وأخرجت سجل الصف السادس الابتدائي المقيد به حمزة، وحررت ورقتي إثبات قيد للحيطة، فربما يحتاجون إلى أكثر من واحد، والتقطت منه الكارت الأصفر، وأمرت سعاد:

- يا سعاد، بعد أن تحضري الشاي لأبو حمزة، صوري الكارت، ولا تنسي أن توضحي في التصوير كلمة لاجئ.. لا تنسي.. لاجئ يا سعاد.

حذاء الصغيرة التي لم تأت

لقد فات أوان كل شيء، هكذا همست شامة لنفسها وهي تعيد ترتيب حجرة نومها، وتفريغ كل الملابس الصيفية بالدولاب البلاكار العالي الضخم المكون من ثلاث ضلف، الأولى والثانية لأغراضها، والثانية بها أدوات المكياج والتجميل؛ حيث تعمل مندوبة لمنتجات شركة My way الشهيرة، وقد دبت أبواب الشتاء تخترق جسدها بالسقعة، رغم محاولتها عدم الاعتراف بذلك لنفورها من ليالي الشتاء الطويلة التي تزيد إحساسها بالوحدة والكآبة عن ليالي الصيف المرحة بالنسبة لها، وعندما رفعت ألواح السرير الخشبية لتفرغ السندرة من الملابس الشتوية وتستبدل بها الملابس الصيفية، زاد إحباطها وهي تستسلم لقدوم موسم الشتاء، ولمحت الحذاء الأسود الفيرنش اللامع، وفستان سيلفانا ذات الثلاث سنوات بدون أكمام الأحمر في أبيض بكرانيش طبقة حمراء وطبقة بيضاء على الصدر حتى حزام قماش

بفيونكـة عريضة بنصفين أحمـر وأبيض عنـد خصرها، ثم ينساب الدوبل كلوش واسعًا بثلاث طبقات، الأولى ستان كبطانـة، والثانية بيضـاء، والثالثـة حمراء. امتعضت شـامة وتعكر مزاجهـا؛ لأنها تذكرت أنـه لا توجد سـيلفانا، ولن توجد لأنهـا عانس، ولا تعـرف المسـتقبل المجهول بعد، فالعمر يمر سـريعًا، وكومت الحذاء داخل الفسـتان وألقته في جانب من سـندرة السـرير، بعيدًا، ثم وضعت بكل قوة وغيظ الملابس الصيفية وهتفت:

– يـا ربي، أحـاول مانتحـرش المرة دي كمان علشـان خاطـر النبي بـس.. مـش أنتحـر. وفـي أثنـاء انهماكها في الترتيب والتوضيب والتنسيق ونثر حبات النفتالين لتحمي الملابس من العتة، والعطن، قفز القطان سـمبا وبيتي على الشـوفينيرة ينظران إليها بتمـرد، بعد فعلتها المتعسـفة من وجهة نظرهمـا مع بيتي، فقـد كانت بيتي حاملاً وسـمبا لا يتحمـل فراقها، ويريـد مضاجعتها فـي كل الأوقـات، فما كان من شـامة التي تساند شـوق سـمبا وتتعاطف مع ولهه وحبـه لبيتـي، إلا أن ذهبـت ببيتي إلـى الطبيبـة المختصة برعايتهمـا، وعقمت بيتي بـــ 350 جنيهًـا، بحيث يمارس

سـمبا معها دون أن ينجبا، وإن كانت شـامة فـي البدء تريد أن تخصي سمبا، حتى تتخلص نهائيًا من مصدر الإنجاب، لكـن الطبيبـة حذرتهـا إذا أخصتـه، الكيـس فـي الخصيـة سيمتلئ ويتراكم، وربما يسبب له سـرطانًا، وطبعًا رفضت شامة تمامًا هذا الحل البشع الإجرامي، فوافقت فقط على تعقيم بيتي فقط، حتى يمارسـا الحب بكل حرية وسـعادة، دون إنجاب الأبناء، فهي مشـكلة ليس لها حل، الآن لديها 10 قطط، وزعتها علـى الجيران وأقربائهـا بعد جهد، ولا يزال عندهـا 5 قطط تتكفل بهـا بالكاد، وفي أثناء اسـتدارة شـامة لإتمام ما تفعله، وإهمالها نظرات سمبا وبيتي إليها، قفز ابن سـمبا وبيتي بوتشـي بقفزة بهلوانية على كتفها، ما جعلهـا تسـقط وسـط الملابس وهـي تضحـك بوجل من المباغتة.

المؤلفة في سطور

- الاسم بالكامل: هدى حسن عباس توفيق.
- اسم الشهرة: هدى توفيق.
- من مواليد محافظة بني سويف.
- حاصلة على ليسانس الآداب- قسم اللغة الإنجليزية- جامعة القاهرة.
- مدير تحرير سلسلة (كتابات جديدة)- الهيئة المصرية العامة للكتاب سابقًا.

صدر لها:

- مجموعة قصصية بعنوان (أن تصير رجلا)، عن هيئة قصور الثقافة المصرية، عام 2007.
- مجموعة قصصية بعنوان (عن عاقر وأحول)، عن مركز الحضارة العربي، عام 2007.
- مجموعة قصصية بعنوان (كهف البطء)، عن دار نشر (الدار)، عام 2008.

- مجموعة قصصية بعنوان (مذاق الدهشـة)، عن دار نشر (شرقيات)، عام 2010.
- رواية بعنوان (بيوت بيضاء)، عن دار نشـر (كيان)، عام 2011.
- مجموعـة قصصيـة بعنـوان (الأمنيـة الأخيـرة)، عـن مطبوعات ورشة الزيتون، عام 2012.
- مجموعة قصصية بعنوان (سـلامتك يا راسي)، عن دار نشر (المحروسة)، عام 2015.
- رواية بعنوان (المريض العربي)، عن دار نشـر (روافد)، عام 2015.
- مجموعة قصصية بعنوان (عدوى المرح)، عن دار نشـر (الأدهم)، عام 2015.
- متتالية قصصية بعنوان (رسـائل لم تعد تكتب)، عن دار نشر (الأدهم)، عام 2016.
- رؤى ثقافيـة (مصـر للقـراءة والمعرفـة) عـن دار نشر يسطرون للطباعة والنشر عام 2016.
- قـراءات إبداعيـة وفكرية فى القصـة والروايـة المصرية (الهيئة العامة لقصور الثقافة) 2016.
- كما نُشِـرَ لها العديـد من المقـالات النقديـة والقصص القصيرة في مجلات وصحف مصرية وعربية.

تحت الطبع:

- مجموعة قصصية بعنوان (أنا اسمي التحرير).
- رواية بعنوان (رقصة التيوليب).
- مسرحية شعرية من فصل واحد (نشرت في جريدة مسرحنا- العدد -403 في 20/ 4/ 2015)
- قصص أطفال بعنوان (هناء وشيرين).

الجوائز:

- جائزة القصة القصيرة عن أدب الحرب عام 1998 من مجلة النصر.
- جائزة القصة القصيرة من أخبار الأدب عام 1999 على مستوى الوطن العربي.
- جائزة القصة القصيرة من نادي القصة عام 2003.
- جائزة المركز الأول عن (رواية بيوت بيضاء)، بإشراف الهيئة العامة لقصور الثقافة، عام 2012.
- جائزة النشر الإقليمي عن كتاب قراءات إبداعية وفكرية (الهيئة العامة لقصور الثقافة) عام 2016

البريد الإلكتروني: hudausef@yahoo.com

الفهرس

ملامح الوطن واحدة.. 7
أيوب المصري 17
رحلة إلى مسقط رأسي... 23
وطن كان... 33
وطن صغير 39
كذبة سمكة نيسان (إبريل) الشهيرة إبريل شهر الغبار
والأكاذيب 47
تخيل رومانتيكي... 51
خيال عن وطن مغاير... 57
الحلق الأسطوري 61
أكثر من ممتاز... 65
التدريب على الانتماء... 69
أنا الزعيم مصطفى كامل... 75
أحضرت كفني الجديد 79

عائشة من دارفور.................................... 85
أين وطني؟... 89
الحياة في مساحة متر ونصف 93
المتمردتان... 99
مصر هي أمي....................................... 105
تمارين الحزن....................................... 109
محامٍ من الفلول..................................... 113
لقاء ووداع 117
أنا لاجئ من فضلك.................................. 123
حذاء الصغيرة التي لم تأت............................ 127

قائمة إصدارات الكتبي

❋ الشعر:

- العزف خارج المقامات. (فصحى) نبيل قاسم
- دستوركم ياساسيادي. (عامية) سمير عبد الباقي
- تلات سهرات. (عامية) ضياء غنيم
- أنشودة العطش. (عامية) حسنين السيد

❋ القصة والرواية والنصوص الأدبية:

- الوجه الآخر للنهر. (قصص) سلوى محسن
- رائحة الحناء. (قصص) نادية شكري
- جمعة القيامة. (رواية) عبد المجيد إبراهيم
- مزامير إيروسياسية. كتابة: محسن البلاسي رسوم : ماجدة خوجة
- أموات بغداد. (رواية) جمال حسين علي

❋ الدراسات اللغوية :

- بناء الجملة في شعر أحمد شوقي. أ(م).د. إلهام سيف الدولة حمدان (دراسة نحوية)
- سيرة عمر بن عبد العزيز أ(م).د. إلهام سيف الدولة حمدان لابن عبد الحكم. (دراسة نحوية)
- مشكلة النحو العربي بين أصحاب أ(م).د. إلهام سيف الدولة حمدان

التفسير وأصحاب التيسير.

- العربية وعصور المعرفة. أ.د. صلاح الدين يونس

❋ الدراسات الأدبية والنقدية:

-النقد الأدبي (تأسيس الحداثة الجمالية أ.د. عبد المنعم تليمة في الثقافة العربية الحديثة)
- المثاقفة وسؤال الهاوية. أ.د. صلاح السروي (مساهمة في نظرية الأدب المقارن)
- ثنائية القيمي والزرائعي في الشعر العربي. أ.د.صلاح الدين يونس
- أليات نقد الاستشراق عند إدوارد سعيد. فاطمة عمر
- رؤى نقدية معاصرة في دراما السرد الأدبي. د. بهاء حسب الله

- دراسات معاصرة في أدب مصر الفاطمية والأيوبية. د. بهاء حسب الله
- تجليات المروي عليه بين النظرية والتطبيق.(شجرة اللبلاب لمحمد عبد الحليم عبد الله نموذجًا) أ.د. عبد الله عبد الحليم
- غزليات الملك الأمجد بهرام شاه الأيوبي. (دراسة فنية) أ.د. عبد الله عبد الحليم
- الأندلس في الأدب المسرحي في مصر (دراسة تحليلة فنية) أ.د. عبد الله عبد الحليم
- الأندلس في الشعر الحديث في مصر. أ.د. عبد الله عبد الحليم
- صورة الأندلس في الرواية الحديثة في مصر. أ.د. عبد الله عبد الحليم
- قطوف (رؤى نقدية في الشعر الحديث). أ.د. عبد الله عبد الحليم
- الشعر في شرقي الأندلس. د. رشا غانم
- منهجية التلقي في النقد الأدبي. (علاء عبد الهادي نموذجًا) د. ناهد الكاملي
- شعر عبد الرحمن شكري. (دراسة اسلوبية) د. ناهد الكاملي

*** الفلسفة:**

- المدينة الفاضلة بين أفلاطون والفارابي. أ.د. حمزة السروي
- فلسفة القانون بين اليونان والرومان أ.د. حمزة السروي وانعكاسها على النظم السياسية عندهم .
- الديمقراطية الأثينية وأثرها في أ.د. حمزة السروي الديمقراطية الحديثة.

*** الفنون الجميلة:**

- موسوعة الفن الروسي. د. أسامة السروي (النحت الروسي) في أربعة أجزاء بغلاف مقوي

أثناء انهماكها في الترتيب والتوضيب والتنسيق ونثر حبات النفتالين لتحمي الملابس من العتة ، والعطن ، قفز القطان سمبا وبيتي على الشوفرينه ينظران إليها بتمرد ، بعد فعلتها المتعسفة من وجهة نظرهما مع بيتي ، فقد كانت بيتي حاملاً وسمبا لا يتحمل فراقها ، ويريد مضاجعتها في كل الأوقات ، فما كان من شامة التي تساند شوق سمبا وتتعاطف مع ولهة وحبه لبيتي، بأن ذهبت ببيتي إلي الطبيبة المختصة برعايتهما ، وعقمت بيتي ب 350 جنيهاً ، بحيث يمارس سمبا معها دون أن ينجبا ، وإن كانت شامة في البدء تريد أن تخصي سمبا ، حتي تتخلص نهائياً من مصدر الإنجاب لكن الطبيبة حذرتها إذا أخصته ، الكيس في الخصية سيمتلئ ويتراكم ، وربما يسبب له سرطاناً ، وطبعاً رفضت شامة تماماً هذا الحل البشع الإجرامي .